يوسف الشاروني
الزحام
دار الآداب

الزحـــــام

يوسف الشاروني



منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
آب أغسطس – ١٩٦٩

الزحام

أنا انسان منضغط ، من قبل كنت سمينا ، كان ذلك منذ ثلث قرن ، حين كنت في سني مراهقتي ، كذلك كان أبي ألف رحمة عليه ، وأمي ظلت تحتفظ بشحمها ولحمها حتى آخر لحظات حياتها • فقد عاشا زهرة حياتهما في الريف حيث الخلاء والفضاء يتسعان للسمان والنحاف • أما أنا فقد اضطررت ــ بين صخب المدينة وزحمتها ــ أن اتخلى عن سمنتي حتى أفسح مكانا للآخرين وأجد متنفسا لي بينهم •

منذ ثلث ساعة وأنا واقف على محطة الاوتوبيس ، أحاول الركوب لأذهب وأستلم نوبتي ، فأنا محصل بشركة النقل الداخلي • لم يبق الا ثلث آخر على موعد عملي • مر أوتوبيس لم يقف بالمحطة • كان متخما بالركاب لا يستطيع أن يزدرد آخر • جاء ثان ، وقف هذه المرة ، انحشر الذين يريدون الهبوط مع الذين حاولوا الصعود ، وقف الجميع صامدين بلا تقهقر ••• أخيرا أفرز الاوتوبيس عددا من الاذرع والاقدام ، وامتص عددا آخر • حاولت أن أشق لنفسي طريقا بين معركة الهابطين والصاعدين، لكنني مـا كدت أجد مكانا لاطراف أصابـع قدمي اليمنى حتى تحرك الاوتوبيس ، فترنحت الى الوراء وأنا اكافح لئلا يختل توازني ، ومـع ذلك فان شيئا قويا دفعني في صدري فوقعت ، وقمت أمسح التراب عن ملابسي •

أنا فتحي عبد الرسول ، محصل وشاعر ، من قرية كوم غراب مركز الواسطي مديرية بني سويف ، حيث أمضيت طفولتي بين الحقول المترامية والأفق الممتد حتى نهاية البصر • كان أبي يشترك في حلقات الشيخ شعراني ، فيهتز ببداناته المفرطة يمينا وشمالا ، وأنا أرقبه في فرح ورهبة محاولا أن أقلده • ما أزال اذكر — في لحظات خاطفة كالوميض — تلك الأمسيات التي كان يقرأ فيها — على ضوء مصباح خافت — قصة السيد البدوي أو أدعية شيخنا المتولي • كانوا يرشحونه لخلافة الشيخ شعراني، كان محبوبا من الجميع ، يقبلون يديه في اجلال وينحنون ليقبلوا وجنتي في لطف ومداعبة •

وأنا أخاف الزحمة وأتهيبها ، أخافها منذ اصطحبني والدي معه الى مولد سيدي أحمد النوتي ، وانضم الى حلقة من حلقات الذكر يتزعمها حتى نسيني تماما • أما أنا فقد تمنيت أن أركب أحدى المراجيح ، ثم وقفت أتأمل مبهورا حصانا من الحلوى عليه فارس صغير ربما كان في مثل سني ، ثم مر بائع للطراطير تتبعته قليلا حتى أحسست فجأة أنني ضعت وسط الزحمة • ذهبت أعدو في لهفة الى حلقات الذكر المنتشرة في المولد، كلهم يشبه أبي وليس فيهم ابي • انفجرت باكيا وأنا أعدو مرتطما بالناس، محتميا منهم فيهم ، خائفا مذعورا • لو كنت معه في الحقل لرأيته على مسافة أبعد مساحة من المولد • لم ينقذني يومها الا واحد من قريتنا، سمعته يقول : ابن عبد الرسول يبكي ، مالك يا ولد ، ثم قادني الى أبي• من يومها تهيبت الزحمة •

عندما نزح أبي من الريف ، باحثا عن لقمة عيشه في المدينة الكبيرة، كنت في سني مراهقتي ، وقد أخذت تظهر على بدني بوادر سمنة موروثة، كما أخذ صوتي يخشوشن ، وأنا أذهب الى الدرسة وأتعلم كيف أقلب صفحات الكتب التي يقرؤها والدي : نفح الطيب في مدح الشفيع

الحبيب ... هدية المسافر الى النور السافر ... الأبكـار الحسان في مدح سيد الأكوان ، وشغفني بوجه خاص ما ورد من قصص في كتاب : روض الرياحين في حكايات الصالحين .

بهرتني المدينة الكبيرة باتساعها وزحامها حتى لكأنما اجتمع فيهـا ألف مولد مرة واحدة . كان واضحا أننا جئناها متأخرين فلا مكان فيها لمزيد من الناس . عندما رأيت العمارات بقاماتها المرتفعة وطوابقها المتعددة عجبت كيف تزدحم البيوت بعضها فوق بعض . كنت أخاف دائمـا أن تندك فـوق ساكنيها لثقل مـا تحمل . رأيـت لأول مـرة الترامات والأوتوبيسات تزحمها الناس وهي تزحم شوارع المدينة . وبدا كـأنما الجميع ،رجالا ونساء ، وشيوخا وأطفالا وشبابا ، يهرولون نحو شيء ما كأنهم قطيع أغنام تتدافع في طريق عودتها الى قريتنا ساعة الغـروب ، كل منهم مندفع يشق طريقه ... معزولا ووحيدا وسط الزحمة . فاجتاحتني نوبة كآبة عميقة ، أعمق من تلك التي اجتاحتني يوم ضعت في المولـد . لو ضعت هنا وبكيت لن أجد من يقول لي : مالك يا ولد . هنا لا تعـرف احدا ولا أحديعرفك .

تمكن والدي ــ ولعلها كرامة من كراماته ــ أن يخلق له عملا وأن يجد لنا سكنا . أما العمل فكان محلا صغيرا للبقالة . أما السكن فكـان غرفة ، جمعتنا أنا وأبي وأمي واختي الصغيرة سعدية وبقايا ما حملنـاه من كتب وأثاث . الغرفة طابق نصفه فوق الارض ونصفه تحت الارض ، نوافذه ضيقة ذات قضبان كأنها زنزانات ، تصلها بقايا ضوء الشمس ولا تصلها الشمس ، فكأن نهارنا غروب طويل ، وما يحمل الغروب من رطوبة لا دفء فيها .

في هذا المكان تتلاصق الغرف ، في الغرف تتلاصق أجساد الرجال وأجساد النساء كلما جمعتهم عتمة الليل فيتوالدون كالأرانب ، وتتصادم

الأهواء فيعلو الشجار ، وتتلامس الرغبات فيشتعل الجنس • الصياح هو اللغة الوحيدة التي يعترف بها سكان هذا الطابق ، صياح لا يهم أن يكون فيه كلمات ، كأننا هناك مسافات بعيدة بين الرجل وزوجه ، وبين الابن وأبيه ، وبين السيدة وجاراتها •

ويبدو أن صاحب البناء ــ توفيرا لنقوده ــ قد جعل سقف طابقنا منخفضا للغاية ، بحيث لا بد أن ينحني كل من يريد الدخول ، الأطفال وحدهم يستطيعون دخوله منتصبي القامة • فكنت ترى الرجال والنساء يزعقون ويضحكون ويتحركون وهم منحنون كأنهم أقواس او انصاف دوائر ، لهذا كانوا بمجرد دخولهم وانحنائهم • يرون اول ما يرون أقدامهم والأرض التي تحت أقدامهم • النوم هو فرصتهم الوحيدة لاعتدال قاماتهم من جديد • ومع ذلك فقد كانوا يفضلون ــ طلبا للدفء في الشتاء ــ أن يحتفظوا بتقوسهم حتى أثناء النوم ، ولقد كان ذلك صعبا علينا أول الأمر بسبب سمنتنا ، غير اننا ما لبثنا أن تعودناه • وكان في الغرفة سرير ينام عليه والدي وامي ، أما أنا واختي فكنا ننام على حصير فوق الارض •

امي ولدت ست مرات ، مات منهم أربعة ، ثلاثة قبل أن يتموا العام وواحدة قبل أن تتم العامين ، وبقيت أنا وأختي سعدية ، في المرة السابعة ماتت أمي • حدث لها نزيف لم تعرف الداية كيف تجابه تحديه • بدأ ذلك في المساء وانتهى في الصباح ، ليلتها لم ينم جيراننا • في الليل قدمت الجارات كل ما يستطعن من عطف وعون •••• كلمة تشجيع ، قطعة قماش ، تأوهات ، طشت ، ملاية سرير ، صرخات • في الصباح عندما علم الرجال أن الأمر قضي قدموا ما أمكنهم تدبيره من مال ليقرضوا أبي ما يستعين به على تكاليف الموت • الرجال الذين حملوا خشبتها تعبوا لبدانتها المفرطة ، قيل انها كانت سببا في التعجيل بموتها ، بكاها أبي

وبكتها اختي وبكيتها • بعدها بشهر كانت هناك عروس في غرفتنا تحتل في السرير مكان امي •

لم تكن عواطف غريبة عنا • كانت من سكان احدى الغرف المجاورة ثم انتقلت مع أسرتها الى غرفة أقل اجرا بطابق آخر بحي مجاور • كانت في العشرين ، وكان أبي يومها قد اشرف على الخمسين • وبالرغم من أنني تقبلتها أول الامر في شيء من التحفظ الا انها حاولت ان تكون لطيفة معي ومع أختي ، كما ان حلاوتها أذابت كل مقاومة من جانبي ، فما مرت بضعة اسابيع حتى آقنعتنا أنه ما كان لغرفتنا ان تستمر الحياة فيها بدونها • كنا قد عانينا خلال الشهر الذي أعقب وفاة أمي من اضطراب الامور في غرفتنا • كانت الجارات يغسلن لنا ملابسنا ، وابي يشتري لنا الطعام من السوق ، أما الغرفة فتراكمت فيها الاوساخ ، فلما اقبلت عواطف انتظم كل شيء من جديد ، بل بدت الغرفة أكثر انتظاما مما كانت عليه ايام امي •

في ذلك الوقت حصلت على الشهادة الاعدادية • حاول أبي ان يلحقني باحدى المدارس الصناعية الثانوية • قيل لنا في كل مكان انه لا مكان • مجموع درجاتي اقل من ان يسمح لي بمزاحمة غيري • كل الفصول في كل المدارس ازدحمت بمن استطاعوا ان يحصلوا على مجموع أكبر •

سمع ابي ان معهدا رياضيا ما تزال فيه بعض الاماكن الخالية ، لا يشترط فيمن يقبلهم مجموع للدرجات • سكرتير المعهد ما أن رآني ــ ورأى والدي ايضا ــ حتى افهمنا عبث محاولتنا •

قال لابي وهو يتأمل سمنتي باسما :

ــ ليس لدينا الا مكان واحد ، وابنك يحتاج الى مكانين •

ــ لكن تمريناتكم قد تجعله يخلي مكانه لآخر •

ـ بل عليه ان يقوم اولا بتدريبات ، فالنحافة شفيع الداخلين الى معهدنا •

عدت أجر سمنتي خجلا منها ، كأنني ازحف أو أحبو • ثدياي كثديي امرأة ، كضرعي بقرة حلوب في كوم غراب ، لحم بطني كله ثنيات ، اليتاي متهدلتان ، وثمة عرق لزج هلامي ينضح متلكئا من كل ثنية ترهل •

انضممت لفوري الى أحد النوادي في مقابل اشتراك متواضع ، حيث أخذت أقوم بتدريبات شاقة ، عندما نحف جسمي كان موعد القبول قد انتهى ، أدركت ان طريق المدارس أغلق امامي ، وعلي ان ابحث عن عمل •

اراد والدي أن يوفر على نفسه مهمة البحث عن عمل لي ، رأى ان يلحقني بمحل بقالته ، طرد العامل الذي كان يستخدمه ، اتهمه بمغالطته في حساب الزبائن ، فلا مكان لكلينا •

في أوائل كل شهر كان الناس يتزاحمون على البقالة ، بطاقات التموين وقد لوثتها يد ، والنقود وقد لوثتها اليد الاخرى ، فاذا اختفى صنف من السوق وتسامع الناس أن بقالة عبد الرسول بها بقايا منه تضاربوا وتدافعوا في سبيل الحصول على الكمية كلها ان امكن ، وينفذ ما لدينا والناس ما يزالون يتضاربون •

كانت مهمتي في ذلك الوقت ان ادفعهم بعيدا عن دكاننا حتى لا تنقلب بضاعتنا فوق رؤوسهم أو تمتد اليها في خفية يد سارق •

علاقتي بوالدي كانت علاقة اعجاب وتهيب أكثر مما هي علاقة محبة• كنت أعجب بشجاعته وأتهيبه لقسوته • كان قد هجر زعاماته الدينية ، فبقالته تأكل وقته صباح مساء • أحيانا كان يضبطني أقرأ او اكتب أغنية فيسخر مني قائلا : لماذا لم تفلح في المدارس اذن ••• لماذا ـ لا تأكل

عيشك كما يأكله أهلك ؟•• ومع ذلك أرسلت للاذاعة اغنية بعـد أخرى دون أن اتلقى جوابا • كنت احاول أن اكتب في خفية عنه اغاني مثل تلك التي يكتبونها عن الحب والعذاب ، لكنها كانت ايضا تعبر عن عـاطفة مشبوبة بدأت تشتعل في دمائي •

في الليل ، عندما تجمعنا غرفتنا ، بعد أن تخفت الاضواء في الغرف المجاورة ، وتخفت معها حدة الصيحات حتى تتحول الى ما يشبه الهمسات بدأت اتنبه الى امور جديدة • كنت أسمع ــ وانا ما بين اليقظة والنوم ــ حركات واصواتا مريبة حيث يستلقي أبي وعروسه • أخذت اتنبه شيئـا فشيئا الى ما يحدث في عالمهما وانا استقبله بمزيج من حب الاستطـلاع والاشمئزاز واللذة •

في الصيف فضلت النوم خارج الغرفة ، في الردهة التي تطل عليهـا بقية الغرف ، في الشتاء لم أحتمل البرد • عندما اكتمل العام ولدت عواطف طفلها الاول ، ولدته في الظهيرة •

سخونة الشمس تلسع رأسي ، رأسي دب فيها الصلع ، حـرارة الجو أذابت نضارة النساء ، تبخرت عطورهن ، فاحت رائحة العرق مـن تحت اباطهن ، لم يقبل أوتوبيس ثالث • اسأل واحدا بجواري عن الساعة فيجيب وهو ينفخ : الساعة مليون • سيدة تنقل طفلها من كتفها اليمنى الى اليسرى ، ومن اليسرى الى اليمنى كل دقيقتين بانتظام • عجوز يرفع عينيه ويحدق في قرص الشمس ثم يسألني عن رقم الاوتوبيس المقبـل • ومن حين لآخر يخرج شخص عن الموقف ــ متوكلا على الله ــ يرفـع يده ويزعق : تاكسي • ويفتح باب التاكسي ••

في محل البقالة رفع أبي السكين يهم بضربي :

ــ ماذا تفعل يا ابن الكلب ، ما تزال تؤلف اغاني الغرام ، هل هذه آخر تربيتي ، اردتك ان تكون شيخ طريقة ، فلا تصبح الا شيخ فساد ••

تدخل الزبائن : أتركه يا معلم •• من أجل خاطري •• كل الاولاد هكذا ••

ـ اتركوني أؤدبه •• المجرم •• حتى هنا لا تفلح ••

أفلت من ايدي الناس المتشابكة ، اختطفوا السكين من يده ، صفعني على خدي ، تهاوت بعض قطع الصابون ، فكرت ان اقذف رأسه بواحدة منها • لم تكن المرة الاولى ، صممت أن تكون الاخيرة •

لم تكن الاخيرة • العثور على عمل آخر يستغرق وقتا • اخيرا قادني صديق الى شركة النقل الداخلي • وقفت أمام الموظف المختص بقبول الطلبات ، تذكرت وقفتي أمام سكرتير المعهد الرياضي ، لم تعجبه هو ايضا بداتني ، الكثير منها ذاب الان ، قال الرجل :

ـ سياراتنا مزدحمة ، اقصد شديدة الزحام ، لا تنقص أمثالك •• كيف تستطيع ان تنزلق بينهم • نريد محصلين مثل أعواد القصب ، وأنت •• أقرب الى الفيل او الدرفيل •• كه كه كه •

ضحكت مع الرجل حتى لا أبدو سمينا وسمجا ، استأنف كلامه :

ـ شركتنا تحب الزحمة ، كلما ازدحمت أوتوبيساتنا زادت ايراداتها نحن نكافيء محصلينا •• ثمانية قروش جائزة اذا وصل الايراد الى عشرة جنيهات ، أربعة قروش عن كل جنيه بعد ذلك • جسمك سيحرمك من الجائزة والمكافأة •

استعطفته :

ـ أعدك ، سأضغط جسمي •

ـ لماذا تأكل كثيرا •• وفر يا أخي لغيرك •• كه كه كه

ـ كه كه كه •• تحسبني ميليونيرا •• أعدك لن آكل بعد اليوم •

ـ سأقبل أوراقك •• المهم أن تقنع الممتحنين يوم اختبار كشف الهيئة •

عدت الى النادي الذي يبيع النحافة ، هناك وجدت عشرات غيري ،كل منهم يقوم بتمرينات شاقة املا في ان يضغط جسمه قليلا فيحصل على مكان في مدرسة او مصلحة • التدريب كأنه تعذيب ، كان علي أن أنحني وأعتدل ، أجلس واقف واتمدد ، أرفع يدا واخفض أخرى ، أنبعج يمينا ويسارا ، اتقوس اماما وخلفا ، كأنني في حلقة ذكر ، حتى ينضح عرقي غزيرا وألهث ككلب يعدو من وحش يزعجه •

أقللت من شرب الماء ، حرمت نفسي من نومة القيلولة ، اقتصرت على تناول وجبة واحدة في اليوم • جسدي كحصان عمدتنا الجامح أروضه بل اذله عساه يقودني وسط الزحمة •

ومع انني لم أصل الى شكل عود القصب أبدا الا انني أقنعت ممتحني يوم جلست امامهم • غنيت لهم بعض ما الفت بعد ان استعرت الحان غيري ، ضحك أحدهم ، ابتسم الآخر ، هذا اول تقدير لاغاني ، وهكذا اصبحت محصلا بشركة النقل الداخلي •

في زحام الاوتوبيس ظننت اني في احدى غرف طابقنا الارضي • السقف منخفض كسقف غرفتنا ، الناس يزدحمون على هيئة أقواس وانصاف دوائر كما يزدحمون في طابقنا • اجسام الرجال واجسام النساء تنضغط فيتوهج الجنس ، الداخلون والخارجون يتصادمون ، يدوس بعضهم بعضا فيعلو الشجار • يركز الواحد منهم كل تفكيره على مقعد قد يخلو ، هذا الاحتمال يصبح اهم ما يشغل فكره في العالم كأنما عليه يتوقف مصيره •

ـ تسمحي يا هانم أفوت •

ـ تفضل •• من منعك ؟

ـ كيف اتفضل ؟

ـ انت امامي •

ـ نحن في أوتوبيس •

ـ فاكر نفسه في الهيلتون

ـ قال تسمحي قال •

ـ لا يعجبها ان يتفاداها الرجل ، الحق عليه فعلا •

ـ ربما لها مزاج •

ها ها ها ••• هو هو هو ••

ـ آه قدمي قدمي •

ـ اذا كنا نعاني من الزحمة الآن على هذا النحو ، ماذا يفعل اولادنا اذن ؟

ـ هذه حكمة عدم زواجي •

ـ بل حكمة الزحمة ، تعالج نفسها بنفسها ، تضايق الخلق فـــلا ينجبون •

ـ هذا أفضل من الاوبئة والمجاعات والحروب •

ـ الزحمة حرب ••• كلما نظرت الى اطفالي أشفقت على مستقبلهم •

ـ بعد بضع سنوات لن يجد الناس مكانا على الارض الا واقفـين متلاصقين •

ـ النكتة ان الزحمة نتيجة التقدم الطبي ، وتغلغل الاطباء في الريف نعمة ولدت نقمة • من يصدق هذا ؟

ـ آه رأسي اصطدمت بالسقف •

في الدرجة الثانية صوت نسائي يقول في غضب وحزم :

ـ تسمح تبعد •

ـ الزحمة لا تعجبك •• خذي تاكسي •

ـ انت قليل الأدب •

ـ ما قليل الأدب غيرك •

ـ يا جماعة كلها دقيقتان •• صبركم •

ـ وحدوا الله يا جدعان •

بقيت دقيقتان على موعد نوبتي ، سينتظرني اوتوبيسي حتى يزدحم بالراكبين فيزعقون على مفتش الحركة ، ويخصمون أجر يومي • لم أعد أحتمل الوقوف • مفاصلي تلتهب •

ذات صباح شكا أبي من مفاصله ، من ركبته اليمنى على وجه التحديد • في المساء عاد يشكو من ركبته الاخرى ومن سخونة في جسده كان يتصبب عرقا كرائحة الخل • ابتلع قرص اسبيرين ونام • في الصباح رفض أن يستريح • قلت له : استرح يا ابـي ، ستذهب عواطف الى البقالة • برقت عيناه كالوحش وصاح : أنا اعلم ، تريد ان ترثني وأنا حي •

ــ بل صدقني أريدك أن تستريح •• أنا خائف عليك • خرجت في الصباح ومفصل يؤلمك ، عدت في المساء بمفصلين ••

قام يحاول الهجوم علي وهو ثائر يصيح : تريد أن تبيع الدكان لتشتري به ورقا وأقلاما ، أنا أعرفك • عواطف لن تخرج من هنا •

سكان الغرف المجاورة أقبلوا ــ كعادتهم ــ حبا في الاستطلاع ، ووساطة في الخير • فضوا ما بيننا •

ذهب الى عمله ، قويا كالوحش ، مستعدا أن يقاوم الموت • فجأة رقد ، لا يحتمل أحدا أن يلمس جزءا من جسده • تورمت مفاصله ، انتفخت بالماء ، قال الطبيب أن المرض وصل القلب • هزه السعال والتقيؤ • كلما سعل أحس احشاءه تتمزق فتتمزق معه روحي • ونظرات الرعب في عينيه لا تمحي من عيني •

في الليل بعد ان دفناه ، بعد أن أنفض مجلس المعزين والمعزيات ، بعد ان بكت أختي سعدية وعادت الى بيت زوجها ، بعد أن بكى اخوتي من عواطف وناموا ، كانت عواطف ما تزال تبكي • لم أستطع أن أذرف دمعة واحدة ، بينما ارتفع في داخلي نشيج صامت يقطر مرارة •

أدركت انني ورثت أبي حقا ، الافواه الصغيرة التي تركها لـي ،

بقايا كتبه وبضاعته ، دكانه وعواطف أيضا • حـاولت أن أسكتها ، أن اعزيها وأنا في حاجة الى من يعزيني • ثياب الحداد السوداء كشفت عـن بياض بشرتها ، لم أتنبه من قبل الى بياض بشرتها على هذا النحو الناصع ولا الى نعومته الحريرية •

في الليلة التالية لموت ابي اكتشفت أن انفها جميل ، ادركت أن الانف مسئول عن جمال الوجه أو قبحه ، الانف مركز الوجه ، اذا كان ضخمـا أو طويلا أو أفطس ألقى بظلال قبحه على ما يحيط به • انفها دقيق اشاع الحلاوة فيما حوله •• في شفتيها ، في ذقنها ، في عينيها حتى تمنيـت أن أقبله ، أن اقبل فقط طرف انفها ، كتبت هذا في الاغنية •

في الليل حلمت اني احمل ابي وهو يئن من آلامه ، كان ثقيلا لبداتته وكنت انا قد اصبحت نحيفا • وقعت وأوقعته معي على الارض • سمعت أنينه وهو يصيح في حزن : لماذا توقعني •• يا جبار يا قاسي • في تلـك اللحظة كنت أذوب حنانا وعطفا عليه ، وانا ارى آلامه تتضاعف بسببي • صحوت منزعجا لارى عواطف راقدة في سرير أبي تتنفس في هدوء وقـد تعرى جزء منها اكثر بياضا ونعومة مما اكتشفته امس ، فاقتربت أغطيه في حنان وانا أحس الدفء يشع منها •

في الليالي التالية تعمدت الا اعود باكرا لا اعود الا بعد ان تكون عواطف قد نامت • طلبت ان تكون نوبتي ليلية ، كنت افضل هذه النوبات حيث يخف الزحام قليلا •

في ليلة الاربعين كان علي ان اكون بجانب عواطف أستقبل المعزين • في تلك الليلة اكتشفت صوتها ، كيف لم اكتشفه الا الليلة ، نطقها المتكسر كأنه نداء ، فيه بحة كأنه رغبة ، ليلتها لم أنم بعيدا عنها ، لم يفصل بيني وبينها اخوتي، بل نمت تحت سريرها مباشرة • كان هذا في اول الليل • غير أنه حدث في منتصفه ان وجدت نفسي ارقد حيث أبي كان يرقـد • في تلك اللحظة اكتشفت قدميها ، اكتشفت اصابع قدميها ، اكتشفت أظافر

اصابع قدميها • كنا مجنونين رغبة • ثم غفت فغفوت •

وجدت نفسي في المولد ، المولد في اوتوبيس ، ثمة موكب يتجـــه نحوي ، يقترب مني • احتشد فيه الناس وهم يذكرون ويكبرون حاملين أعلامهم ومشاعلهم وطبولهم يتقدمهم ابي على حصان كبير من الحلـــوى لابسا طرطورا شاهرا سيفه ، حوافر حصانه تطأني وسيفه يضربني ، مـــن خلفه يتدافع الناس كما يتدافعون لأخـــذ تموينهم من البقالـــة ، كمـــا يتدافعون لركوب الاوتوبيس قبل أن ينزل ركابه •• يتدافعون ويدوسونني وانا أصرخ ولا صوت يخرج فقد امتلأ فمي بالتراب • كنت أتضغط تحت حوافرهم وهم يدوسون مفاصل جسدي مفصلا مفصلا ، حتى ضاع دفتر التذاكر وتبعثرت نقود محفظتي ، وانا اتشبث عبثـــا ببقاياهـــا •• آه سيطردونني من عملي • لم يبق بيني وبين موعد نوبتي غير ثلث دقيقة • أحذيتهم واقدامهم ما تزال آثارها داخل مفاصلي ، داخل ركبتي اليمنى على وجه التحديد، ما تزال اثار ضربة من سيف ابي ••• جسمي يغمره عرق رائحته كرائحة الخل • سيزحف المرض على قلبي •

أنا فتحي عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ، نحن في الغرفـــة جميعا ، ابنها الاكبر بدأ ينتبه • يصحو في الليل كأنما يريد أن يشرب من القلة ، ينظر نحونا ،أنا قد ابتعدت ، لعله يريدها له ، أشك في نواياه •

ـــ ماذا تفعل يا سعيد ؟

ـــ ايه •• اشرب •

ـــ تشرب !

وتصحو عواطف وهي تقول :

ـــ الدنيا ليل •• الحيطان لها آذان ••• اخزوا الشيطان •

ـــ لكن ما علاقة هذا الولد بك ؟

ـــ تقصد ابني سعيد •• هل أنت مجنون ؟

ـ لست مجنونا •• لماذا يقوم كل ليلة ؟
ـ يريد أن يشرب أو يتبول •
ـ بل أعرف ماذا يريد •

صفعت سعيد على وجهه ، صرخت أمه ، استيقظ الجيران ، عواطف تصرخ :

ـ ابعدوا عني المجنون ، ابعدوا عني المجنون •

في الفجر لمحت والدي في ركن الغرفة يرتدي بذلة مفتش في شركتنا ، وقد جلس متربعا وهو يتمايل يمينا ويسارا ، المانوفستو بيده ينشد منه :

آه يا جبار يا قاسي •• أنا أبوك يا ناسي •

ظل يردد نشيده كأنه في حلقة ذكر حتى تذكرت الفاتحة ، رددتها ، اختفى • غير أنه عاد فيما بعد • كان لا يعود الا في الفجر أولا ، ثم تعددت زياراته في كل وقت •

في زحام الاوتوبيس عاودتني نوبات الكآبة والتهيب وأنا منحن أقطع التذاكر حتى لأفقد كل رغبة في الحياة ، لا احتفظ الا بالقليل الضروري لاستمرارها • أفقد شهيتي للطعام والنوم كما أفقد عواطفي نحو عواطف بل قدرتى على تأليف الاغاني •

ـ تذكرتك يا هانم •
ـ دقيقة •• آه ، كيس نقودي ، كيسي ، أين كيسي ؟
ـ نشله النشالون ••• نشالون •• لون •
ـ أوقف الاوتوبيس •
ـ عندنا مواعيد •
ـ فتش الركاب •
ـ ولد صغير كان يقف بجوارها ، قفز من محطتين سابقتين •

ـ كان فيه كثير ؟

ـ عوضك على الله يا هانم •

السيدة تلعن الزحمة بينما يتحسس كل راكب جيبه •

ـ أنت دفعت كم ؟

ـ خمسة قروش •

ـ وأخذت الباقي كم ؟

ـ تسعة قروش •

ـ هل هذا باقي مبلغك ؟

ـ هل أعرف ثمن التذكرة في أوتوبيسكم ؟

هاهاها ••• هي هي ••• هو هو هو •••

أريد أن أشم رائحة الخضرة ، أن اتنفس ضوء القمر ينتشر على حقول غطتها عيدان الاذرة • لم اعد اشم الا رائحة العرق والانفاس • في الليل يختنق ضوء القمر تحت زحمة البيوت ، طردوا القمر من المدينة • هذا كان في الاغنية •

أشرفت عواطف على محل البقالة • كانت تخرج في الصباح ولا تعود الا في الليل • فاجأتها اكثر من مرة لعل زبونا يغازلها ، الزحام اشتد على البقالة عن ذي قبل • وجدت سعيد يساعدها بعد عودته من المدرسة • لم يعطني نصيبي مما تربحه ، أريد أن أقضم أنفها ، وجه ابي يقف بيني وبينه •

ـ ماذا يفعل هذا الولد عندك ؟

ـ يساعدني كما كنت تساعد أباك •

ـ بل يأكل نصيبي ؟

ـ نصيبك يأكله اخوتك •

ـ اذن آكل أنفك •

ـ يكفيك أجرك •
ـ يكفيني طرف انفك •
ـ ليس لك نصيب •
ـ أنفك نصيبي •
ـ آه ••• ماذا تفعل ؟

هجمت عليها ، التفت اصابعي بشعرها ، التصقت به ، تشبثت به ، حاولت ان ارفع وجهها لأقضم أنفها ، فوجئت بطعم الدم • لساني يلعقه• لمحت ـ من خلال المعركة ـ أنفها الجريح ، غير اني لم أفلح في انتزاع قطعة منه ، ولا حتى مجرد قطعة صغيرة صغيرة • خمشت وجهي بأظافرها وهي تولول • ضربت رأسها في حائط الدكان • تجمع الناس ثم تزاحموا كما يتزاحمون في الاوتوبيس ، ضغطوني بينهم • قلت لهم أنها لا تريد أن تدفع ثمن تذكرتها ، يجب ان تنزل في المحطة التالية •• أين تذاكركم ، أنا اعرفكم ، كلكم تحتمون في الزحمة حتى لا تدفعوا ••• لكني أميز جيدا بين الوجه الذي دفع والقفا الذي لم يدفع •

دفعتنا الزحمة الى مركز الشرطة ، قالت لهم اني مجنون واستشهدت بأنفها المقضوم • طلبت حمايتها مني والكشف على عقلي • كتب الشاويش المحضر ، في المحضر كتب اسمي وعنواني وعمري وعملي •

من يومها أدركت أنهم قد يقبلون في اية لحظة ، ليلبسوني قميص الكتاف ثم يأخذونني •

•

منذ زمن بعيد كنت أسير متكورا ما دام علي أن انحني كالقوس داخل غرفتي ، وكالقوس داخل اتوبيسات شركتنا ، فقد وفرت على نفسي جهد الاعتدال ما بين المكانين ، ووجدت في هذا التكور ما قد يخفيني عن أعينهم •

كنت احاول الاختفاء عنهم وأستعد في الوقت نفسه لاستقبالهم • في

كل مرة أستلم اجري اقول : هذا آخر اجر لك قبل ان ينقلوك ، في كل مرة أحلق شعر رأسي او ذقني أقول : هذه آخر مرة تحلق فيها قبل ان يأخذوك ، في كل مرة استحم فيها أقول : هذه آخر مرة تستحم فيها قبل أن يلبسوك قميص المجانين .

ــ تذاكر !

ــ مصلحة !

ــ تسمح !

ويخرج الرجل بطاقة تثبت أنه خارج من مستشفى الامراض العقلية ، أسأله لماذا لا يريد أن يدفع ، يضحك قائلا :

ــ يا سلام ... نحن واحد .

هى هى هى ... هو هو هو ... أنا فتحي عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ومجنون ، ألفت أغنية عن الزحمة ، طبيبي لا يصدق اني مؤلفها .

في الزحمة تتلاصق الاجساد ، تتلاصق الكلمات ،
يختفي العطف ، تختفي حروف العطف ،
يتلاشى الوصل ، تتلاشى أسماء الوصل ،
الزحمة هم ثقيل ، احمله فوق قلبي فوق ظهري ،
يضغط على لحمي ، يتسلل الى نخاع عظامي داخل لحمي .

رأيت الناس في الزحمة ، رأيتهم عندما يخلو مكان فيتدافع نحوه العشرات مذعورين متحفزين ، غير أن اشخاصا اقدر من غيرهم على الانسياب وسط كتل اللحم ، هم وحدهم يفوزون بالمقعد ونصف المقعد ، ويجلس الواحد منهم وعلى شفتيه شبه ابتسامة ، كأنما هو بطل صغير محلي يحتذى ويحسد . أما الرضع والحوامل ، أما الذين يتأدبون والذين يترددون ويبطئون فيظلون واقفين ، تتشبث قبضاتهم بقضيب في أعلى

السيارة ، كأنهم ذبائح بشرية معلقة مكدسة ، تقطر مرارة. آه .. مفاصلي تؤلمني . هذا ليس في الاغنية .

معي في هذا المكان الذين يبكون والذين يضحكون . والذين صمموا على أن يقفوا بقية حياتهم على ساق واحدة ، والذين صمموا على أن يرفعوا يدا لا تنخفض معي عظماء العالم : نابليون والسيد البدوي وصاحب « شركات النقل الصاروخي قبل ان تخترع الصواريخ » هكذا الاسم الكامل لشركاته . ومعنا أيضا من اطلق على نفسه لقب صاحب القدرة على كل شيء . جميعهم طيبون ما عدا نابليون ، هو وحده الذي يخيفني ، متى وجد عصا في متناول يده ركض خلفي يحاول ان يضربني مدعيا أني أحد جنوده العصاة وانه يؤدبني بعصا الماريشاليه وأنا أعدو متكورا أمامه حتى يختطفها الممرضون منه .

أما الباقون فيأتون من حين لآخر ليقفوا الى جانبي في انتظار الاوتوبيس ، غير ان صبرهم سرعان ما ينفد ، فيتسللون واحدا اثر واحد حتى صاحب شركات النقل الصاروخي ما يلبث ان ينفخ ثم ينسحب ، وأظل وحدي واقفا تحت وهج الشمس انتظر .. انتظر ... أنتظر ...
منذ دخلت هذا المكان وأنا أقول : غدا اخرج ، غدا وبعد غد وبعد بعد غد . في كل عام أقول : هذا آخر مولد لسيدي أحمد النوتي اقضيه هنا ، هذا آخر مولد نبوي ، آخر عيد كبير ... عيد صغير .

عندما أسأل الطبيب : متى تقرر خروجي . يجيب : بل أنت الذي تقرره ، عندما لا تعود ترى وجه أبيك ، عندما لا تعود تقضم أنوف النساء ، عندما ترفع قامتك من جديد . فأسأله : هل الزحمة ما تزال تزحم المدينة . فيضحك قائلا : ها أنت ذا ما تزال مريضا .

اني ألمح طبيبي مقبلا ومعه زائر جديد ، هكذا كل يوم . أعرفه

بمعطفه الابيض ونظارته الفضية . أعرف بماذا يهمس له ، كمـــا همس لزائر الأمس ، وأول أمس ، وأول أول أمس . انه يؤكد له أن مفاصلي سليمة ، المرض في مفاصل عقلي .. ها ها ها .. انه يشير نحوي قائـــلا : هذا الرجل القوس ما يزال ينتظر الاوتوبيس ، منذ ثلث قرن ما يزال واقفا ينتظر ، ينتظر مكانا له في الزحمة .

مدد يا قطب يا مغيث ، مدد يا حي يا قيوم .

لمحات من حياة موجود عبد الموجود

افتتاحية ثلاثية :

البدء : في البدء كان الخوف ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ، هذا كان في البدء .
الوجود : أنا خائف اذن أنا موجود .
تلاقي المتناقضات : خوفي يطمئنني .. يحميني .

الحدث

انطفأت الشمعتان : البنت وأمها ، زوجتي وعشيقتي ، لم يبق الا المداس .

أنا مدرس فلسفة ، كنت طالب فلسفة ، منذ مدة طويلة طويلة .
ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

أنا في الغرفة وحدي ، غرفة واحدة وحيدة فوق سطح فسيح ينشر فيه السكان ملابسهم المغسولة على حبال امتدت بطوله في غير نظام ، تتقاطع حينا وتتوازى حينا فتصنع المثلثات والمربعات . ليس في غرفتي أثاث كثير : مقعد أجلس على قاعدته وأعلق بذلتي على مسنده ، منضدة للكتابة والاكل ، كنبة كان يجلس عليها ضيوفي نهارا وأنام عليها ليلا ،

كوب أشرب فيه أحيانا وأضع فيه أزهار البازلاء التي أحبها أحيانا • كل شيء مزدوج الفائدة في غرفتي ، حتى الصحيفة التي يلقيها البائع كل صباح تحت عقب الباب أتتبع منها أخبار اتهامي ثم أجعل منها مفرشا لمنضدتي • ولكن فلنبدأ القصة من آخرها •

يا رعبي من الليل ، يا لكآبة الليل ، ليس الليل في اوائله ، مشكلتي مع الليل في اواخره ، فأنا أهرب من خوفي في اوائل الليل ، اذ يهبط علي نوم ثقيل بعد تناول طعام العشاء مباشرة مهما كان خفيفا ، كأنما تناولت مخدرا أكيد المفعول • غير أني ما البث ان اكتشف اني كنت ضحية خدعة سمجة ، اذ اصحو فزعا في الثالثة او الرابعة صباحا حيث يصبح صوت الليل اعلى من ضجيج النهار : نباح كلب ، نقيق ضفدع ، دقات ساعة ، أشياء تتكسر ، أقدام تدب، وتوقع شر يوشك أن يقع ولا يقع لكنه سيقع• ويطوف بي هاجس ان ضع حدا وحلا لما أنت فيه ، افتح نوافذ غرفتك ــ عندما يزدحم النهار بنور الشمس وتزدحم الساحة بخلق الله ــ لتعلن جريمتك ••• بل الأفضل ان اتسلل بلا ضجة الى مركز الشرطة لاعترف• لكن بماذا عساي أعترف ، هل اعترف بأني لست واثقا على وجه يقيني ابدا بما أعترف ؟ لكن هل تراهم ينتظرون حتى اذهب بنفسي ، لعلهم قادمون ، والا فلماذا ينبح كلب وتدب قدم ؟ يا لهول الارق والقلق • الفجر خلاصي من عذابي ، صياح ديك ، شقشقة عصفور ، وينزاح كابوس الظلمة •

في صباح يوم ما، منذ زمن غائر في الزمن ، كنت أهبط السلم في طريقي الى كليتي ، عندما ترامت الى أنفي رائحة عفنة • ظننت اول الامر انها تنبعث من قط او كلب ميت او ربما من فأر القاه اطفال العمارة في بئر السلم • غير أن اختفاء الشيخة مديحة منذ ايام أثار ريبتي ، وهي التي كانت تملأ العمارة والحارة والحي كله حيوية وضجيجا • عدت أصعد درجات السلم التي كنت قد هبطتها لأطرق باب شقتها ، غير أن

احدا لم يستجب لطرقاتي • عبثا حاولت أن أدرك الحقيقة من خلال الباب المغلق : وضعت عيني، لم أر شيئا ، أرهفت أذني ، لم اسمع شيئا • أنفي فقط استطاع أن يلتقط رائحـــة أقرب الـى رائحـــة الجريمـة • قررت ان أسرع الى مركز الشرطة لاطلعهم على مخاوفي ، فقد كانـت تربطني بالشيخة مديحة ــ قبل أن تستشيخ منذ أسابيع ــ اكثر من صلة•

حين صارحتها ان عيون الناس مفتوحة ولا معنى من الصاق تهمة نحن منها براء ، كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة :

ــ لماذا لا تتزوج ؟

ــ ما زلت طالبا •

ــ ولا تملك نفقات زواج ؟

ــ ولا وقع اختياري على عروس •

ــ العروس أمامك ، ونفقات الزواج مكفولة ، والمسكن مهيأ •

هكذا عرضت علي الزواج لكن بابنتها • هذا رد مفحم على تقولات الناس ، هذا تفسير لا يخطر على ابليس نفسه لسر الزيارات المتبـادلة ، وهو ازالة نهائية لمخاوفي• ما علي الا ان اهبط من غرفتي العلوية الى شقتها زوجا لابنتها امام الناس وعشيقا لها امام الشيطان • يا للفراش الآثـم، يا لضحيتنا المسكينة ، يا للمجنونة تكتسح ابنتها امام نزواتها • وانا سعيد بالعصفورين أردد نشيدي الفلسفي : انا خائف اذن انا موجود •

في طريق عودتي مع الشرطة ، كان ثمة أمل أن تكون مخاوفي مجرد وهم، فأجد الباب مفتوحا والشيخة مديحة واقفة تصد الشرطة عن الدخول، فوقوع أمر سيء للشيخة مديحة سيسبب لي متاعب لا نهاية لها وسيوجه الاتهام اول ما يوجه الي •

عندما استدعيت امام المحقق كنت ارتجف رهبة • سردت موجـز علاقتي بالشيخة مديحة منكرا ومستنكرا اية صلة آثمة لي بها ، وكـان بعض الشهود الفضوليين قد اطلعوا المحقق على احتمالات من هذا القبيل•

اعترفت اني دفعت لها دينا على ظهر الخميس ••

ــ اي دين ؟

ــ دين اقترضته منها يوم زواجي بابنتها •

ــ كم اعطيتها ؟

ــ جنيهين قسطا اول •

اما معركتي معها فلم اشر الى شيء منها • قطعة من مداس ابنتها كانت تستلقي بلونها الاحمر الباهت امامنا على مكتب التحقيق • سألني فجأة عن بقيتها ، انكرت معرفتي بشيء عن مصيرها • لو ضيق الخناق علي لاعترفت على الفور ، فأنا لا أجيد الكذب ، هذه احدى رذائلي ، ما أخفيه بلساني تشي به انفعالاتي •

لقد وقع ما كنت اخشاه : فالباب ما يزال مغلقا ، وقد تجمع الجيران اطفالا وسيدات امامه يتشممون الحدث • وعندما اقتحم رجال الشرطة الشقة وجدوا بقايا الشيخة مديحة على فراشها تنبعث منها رائحة تزكم الانوف • فهبط قلبي وتلخلخت ركبتاي ، وشملني دوار عنيف • غير اني تماسكت ، لمحت الجميع وقد سدوا انوفهم بمناديلهم او اصابعهم ففعلت مثلما يفعلون ، وتساءلت مثلما يتساءلون : اترى في الامر جريمة ، واذا كانت هناك جريمة فمن هم المتهمون ومن هم الشهود • وهل تراني ساكون شاهدا ام متهما • واذا اتهمت فالى اي حد يصل اتهامي • هل تراه يصل الى حد اداتني ؟

في الصيف السابق ، في بداية العام الرابع والاخير لدراستي ،اقبلت مع سمسار أبحث عن غرفة تؤويني • في اول عام كنت كالتائه في زحام القاهرة ، أقمت مع ابن عمي ، اتوكأ عليه وانا استكشف خفايا المدينة الكبيرة واتعثر في منحنياتها ، مزودا بنصائح ابي ودعوات امي وما يقتطعانه من قوتهما وقوت اخوتي • اكتشفت ان لهجتي ومخارج الحروف من فمي تعريني امام زملائي وزميلاتي القاهريين • واكتشفت

ــ لدهشتي ــ ان هؤلاء الزملاء والزميلات يتحركون معا ببساطة وبلا حرج • تمنيت أن افعل مثلما يفعلون • كان ينقصني شيئان : موهبة او دربة ، وقليل من المال • فانزويت وانطويت •

في الصيف السابق تزوج ابن عمي ، عـدت مـن قريتي فوجدت عروسه الحلوة القاهرية الصغيرة تحتل الشقة باثاث لامع براق ، وقـد كدست سريري ومقعدي ومكتبي وكتبي في ركن منزو • فخرجت أبحث عن مكان يؤويني حتى عثرت على غرفتي •

في الصيف السابق اكتشفت انني من خلال ثقب الباب أستطيع ان استعـرض نساء العمـارة المتواضعة وهـن ينشرن الغسيل : ملابسهن وملابس أزواجهن واطفالهن • في صباح كل جمعة كانت مـديحة تنشر غسيلها • لاحظت أنها لا تنشر الا ملابس نسائية ، ليس بينها مـلابس رجال او اطفال • كانت هذه هي معرفتي الثانية بها ، معرفتي الاولى كانت يوم اتفقت معها ــ وفي شقتها ــ على تأجير غرفتي • يومها لاحظت انها في الاربعين وابنتها الى جانبها في العشرين • لكن حين اقبلت تسألنـي عن غسيل لها مفقود بدت في الثلاثين • كانت تمضغ اللادن وتلفحني برائحة عطرة نفاذة ، ثوبها بسيط وان كانت الوانه زاهيـة ، ليس فيـه تكلف الحشمة ولا خروج عليها ، كلماتها قلائل في جرأة وفي أدب • ومع ذلك احسست ان هناك دعـوة خفية منها موجهة الي تنبعث مـن عطرهـا وثوبها ومن جرأتها المؤدبة • في الليل ــ وانا ما بين اليقظة والنوم ــ (ولادنها) رأيتها تخطر امامي بينما توارت زميلات تعودت ان استعرضهن كلما انتابني ارق ذات ليلة •

في المرة التالية اطالت الوقوف بينما كانت ابنتها زينب تجمع الغسيل• استفسرت عما يضايقني فشكرتها ، وان كنت بدأت افكر فيما يضايقني او قد ينقصني • تجربتي في القرية والبندر اولا ، ثم مع زملائي وزميلاتي في الكلية ، علمتني ان اتهيب الناس واخشاهم ، لكني لا اتعلم • حاجتي

الى الاخرين تدفعني نحوهم وتشككي فيهم يدفعني عنهم •

زينب لم تكن في حيوية امها ولا جاذبيتها ، وان كان شبابها يفيض حلاوة هادئة • لاحظت انها تغادر منزلها وتعود في فترات مختلفة من اليوم ، أحيانا ظهرا ، واحيانا مساء ، واحيانا تخرج ليلا ولا تعود الا صباحا ، مما لم استطع له تفسيرا • غير اني علمت فيما بعد انها تعمل ممرضة في مستشفى • امها قالت متبسطة في الحديث معي : لست اخشى عليها لا من المرضى ولا من الاصحاء اطباء كانوا أم ممرضين • فهي — مثل المرحوم ابيها — عواطفها هادئة ، أقصد جامدة ، خامدة • تصور انها اجتازت مرحلة المراهقة كأنها جبل من الثلج • زوجها سيطمئن على شرفه تماما دون ادنى مجهود من جانبه هيء •• هيء •• هيء •• زينب ورثت ايضا شكلها — كما ورثت طباعها — عن المرحوم والدها • منذ عشر سنوات مات وترك لي البنت وهذه العمارة نصيبي في الميراث والدنيا •

تصرفات البنت المتحفظة بدت لي كأنها احتجاج صامت على مرح الام وانطلاقها • لكن الانسان المستأنس فيها يتحول الى حيوان شرس اذا سمعت كلمة سوء عن امها • سمعت صوتها يعلو أول مرة مع احدى الساكنات وانا اصعد في طريقي الى غرفتي فلم اصدق ما سمعت وما رأيت • حين علمت السبب تحققت مخاوفي • كانت تدافع عن سمعة امها وتدافع — ويا للمفاجأة — عن سمعتي • سمعتها تلوك اسمي لاول مرة على لسانها فبدأ كأنه اسمي وليس اسمي : موجود عبد الموجود •

عندما حصلت على ليسانس الاداب وعملت مدرسا للفلسفة وعلم النفس باحدى محافظات الصعيد ، قلت ها هوذا نصف جلدك قد سلخ عنك ، ها هوذا جزء منك قد تغير عنك : عنوانك ومهنتك • غير اني حين ذهبت الى مكتب البريد لاستلم حوالة من والدي ، طلب مني عامل البريد الاطلاع على بطاقتي الشخصية، فوجد اختلافا بين بياناتها وبيانات الحوالة لهذا طلب مني — في ادب جم — تغيير هذه البيانات حتى اتمكن

من استلام المبلغ المحول لي • وهكذا اكتشفت ان نصفي الذي لم يتغير : اسمي الذي ظل ملتصقا بي ، وتاريخ ميلادي الذي ما يزال يتسلق ايامي كان سببا في فشلي في التخلص من نصفي الاخر •

اذن بدأوا يتقولون ، ولعلهم يتبأون ، فليس في الامر بعد شيء مما يظنون ، وارجو الا يكون • على اية حال هذا ما كنت اتوقعه وما كنت أخشاه ، ولقد صح توقعي ووقع ما اخشاه • حذرتها فما استمعت لتحذير ، جرأتها تخيفني وتغريني ، تقصيني وتدنيني • تهمة لها اساس وبلا اساس • زارتني في غرفتي ، زيارة بدت غير مقصودة ، وانا أعلم أنها لا يمكن الا ان تكون مقصودة • كانت في الفجر قبل ان يطرق السطح طارق ••• لكن مالي اخلي نفسي من المسئولية وكأني طوردت ووقعت دون ان اسعى الى ذلك سعيا اخفى من سعيها وادق • فقد سبقتها ومررت بها اسألها عن رسائل قد تكون وصلت من البلد، لكني وجدت زينب بدلا منها • اجابتني في كلمات مقتضبة ان شيئا لم يصل • غير اني عاودت الكرة حين حل اول الشهر ، لا لادفع الايجار ـ فالنقود لم تصل بعد ـ بل لاعتذر لها عن عدم دفعه ، وانا ارجو دعوتها واخشاها • اخشى ما يتلو الدعوة من دعوات ، وما يتلو الدعوة من تقولات • وحين اعلنت لها ان عيون الناس مفتوحة ولا معنى من الصاق تهمة نحن منها براء كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة •

يا لهيبة الجسد النسائي ، انا تلميذ قروي في مدرسة البندر في اول درس في اول يوم • انا طالب قادم من الاقاليم في جامعة القاهرة في اول لحظة في اول يوم • علي ان اعيش الاقدام والاحجام ، أن اتعلم وان أعتاد ، ان اكتسب شيئا وان تظل كامنة في اشياء • كانت معلمتي قديرة خبيرة تستأنس الحيوان البري الوجل • اسمع طرقات على الباب ، تفسد متعتنا ، لا احد الا الريح ، نواصل ما انقطع ، وانا منزلق في الكهوف السحرية اخفي خوفي في مصدر خوفي •

البيت يطل على الساحة ، الساحة فيها مولد ، المولد فيه سبعون الف انسان ، لكل انسان سبعون الف يد ، بكل يد سبعون الف مداس ، بكل مداس سبعون الف شمعة • وهم يتمايلون وينشدون : عملنا المحظور وقع المقدور ، انت الغفور •

في ليلة الزفاف نقلت كتبي من الغرفة العلوية الى شقة العروس • واحتفظت بأثاثي المزدوج الفائدة في الغرفة • قدمت لعروسي بضع هدايا متواضعة : زجاجة عطر وثوب وحذاء ومداس قطيفي احمر • المداس ارخصها وهو الذي نال ــ ويا لدهشتي ــ اعجابا كبيرا • احتضنته وقبلته ، والآن ادركت اي نبوءة مشئومة كان يحملها اعجابك يا عروسي• اما والدي فقد خشيت ان ابلغه •

للغرفة باب ، للباب ثقب ، للثقب مفتاح • كانت حريصة تغلق الباب وراءها بالمفتاح وكنت اكثر حرصا فابقى المفتاح في الثقب يسده ويسد من ورائه عين زينب اذا ارادت تلصصا • اين المهرب من عيون الناس • اغلقنا عيون الغرباء لنفتح عيون زينب •

زينب تعودت أن تحمل معها نسخة من مفتاح البيت لاختلاف مواعيد عملها • بعد الزواج استمرت على ما تعودت عليه حتى لا نوقظ شكوكها وهي التي وصلتها همسات الناس • ترك المفتاح ، مفتاح باب البيت معها ، خط دفاعنا الاول • ترك المفتاح ، مفتاح باب الغرفة في ثقبه ، خط دفاعنا الثاني • نقط الضعف واضحة في الدفاعين : من الاول تستطيع أن تتسلل ، من الثاني تستطيع أن تفجأ وتفجع •

المداس وجدناه عند باب الغرفة ، وعويل النساء وصراخ الاطفال في اسفل الحارة • واللذة الآثمة تحشرجت ، والذعر ••• اذن فقد ثقبت الباب بأذنيها ، رأت بهما ما حجبناه عن عينيها • في التحقيق تبين أن زينب ألقت بنفسها من فوق السور ، سور السطح ، السطح الذي به غرفتي ، حافية القدمين ، جاحظة العينين • ولول الغرباء المزدحمون :

هذا من هول الصدمة ، صدمة الوقوع من أعلى الى أسفل •
سر المداس لم يعرفه أحد غيري ومديحة • حاولت أن أضعه في قدمي عروسي وهي جثة نودعها القبر غير أن أمها ــ وقد برقت عيناهــا بلمعان مخيف ــ أبت الا أن تحتفظ به لنفسها • عندما أقبلت المعزيات مساء وجدنها تضم المداس الى صدرها وتقبله •
في اليوم التالي طردتني من شقتها • كنت أنوي أن أنسحب الى غرفتي العلوية دون انتظار أية اشارة منها • عنفها روعني وحجتهــا أدهشتني :
ــ زوجتك ماتت وبقاؤك في شقتي خلوة محرمة •
حسبت أنني اتلكأ فصاحت :
ــ أخرج بالحسنى والا استدعيت الشرطة •
وكما أنزلني الخوف أصعدني الخوف •
تعودت أن أمزق أوراقي أولا بأول ، خطابات والدي ، صورة المرحومتين زينب ووالدتها مديحــة ، مذكرات أساتذتي ، حتى كتبي الدراسية والدفاتر التي أعد فيها دروسي لألقيها على طلبتي تخلصت منها ، فقد يكون فيها ما يدينني وأنا لا أدري • غير أني عثرت بمحض الصدفة على محاولة شعرية فلسفية أفلتت من التمزيق مع أنها تستحق الدمار ، لأني اولا لا أعرف شيئا عن أوزان الشعر ، ولانها ثانيا لا تدل على أية موهبة• وأعتقد أنها لهذا السبب كانت المحاولة الاولى والأخيرة• اما تاريخ كتابتها فلا أذكره • على أية حال سأمزقها بل سأحرقها لتلحق بما سبقها •
في ليالي المولد خرجت مديحة ، منفوشة الشعر ، مرقعة الجلباب، حافية القدمين • وفي كل يد وضعت مداسا، في كل مداس وضعت شمعة، بكل شمعة أشعلت شعلة • ومضت تهمهم بكلام لا هو بالهمس ولا هو بالصياح : عملنا الآثام وعينك لا تنام ، فأتتقمت يا رب الأنام شر انتقام،

ثم تصرخ : رأيتكم ••• ضبطتكم ••• أنت وهو •

الغموض على شفا الوضوح ، السر يوشك أن يصبح فضيحة• كلما ولجت الحارة ، كلما صعدت العمارة ، قدمت قدما وأخرت أخرى • إنقضى المولد والشيخة مديحة لا تزال تجوب الشوارع • فوق رأسها صينية ، في الصينيـــة المداسان ، في المداسين الشمعتان ، بالشمعتين شعلتان • والناس فريقان : فريق كلمـــا رأوهـــا ينعجبون ، ويتهيبون ويتبركون • وفريق كلمـــا رأوني ــ وبدون أن يروني ــ يتقولـــون ويتهامسون •

مخاوفي تركزت الآن في المداسين ، في لونهما الاحمر وملمسهما القطيفي وما تبقى فيهما من رائحة القدمين وأصابع القدمين • رأيتهما في منامي يتحركان ــ كأن انسانا يضعهما في قدميه ــ ويتجولان بحريـــة على جدران غرفتي ، وكلما بلغـــا سقفها فوق رأسي فأدفعهما بعيدا وأنا انتفض خوفا ليعاودا رحلتهما • استيقظت مفزوعا لأكتشف ان البول احتبس في مثانتي •

لو انتزعهما لانتزعت سري من هذه المرأة المجنونة ، تهددني كلماتها كل يوم بما يفضح دون ان يفصح • هممت اكثر من مرة ــ عندما كان يتصادف لقاؤنا وانا اخوض غبار الحارة صيفا واتدحرج على زلقها شتاء ــ ان اهجم عليها لانتزعهما منها ، لكني كنت اخاف خوفي ، فيصبح الغموض واضحا والسر فاضحا • لو كانت تتركهما في شقتها لحظـــة لتسللت اليها وسرقتهما ، لكنها ما كانت تخرج الا بهما ولا تعود الا بهما•

ذات مساء طرقت بابها ، عندما لمحتني جحظت عيناها وصوتها كالفحيح : اياك ان تقترب ، انا اعرف لماذا جئت •

ثم اسرعت الى كنبتها الممتدة في الصالة حيث يرقـــد المداسان ، واختطفتهما واحتضنتهما وانا اتصنع الهدوء ، محاولا ان اجعلها تبدأ بدورها وهي تسمع اجابتي :

ـ جئت اعلن تنازلي عن نصيبي في الميراث •
ـ كذاب •
ـ واعلن اني عثرت على غرفة اخرى •
بوغتت لحظة ، ثم لوحت بالمداس وهي تقول :
ـ لن تهرب من عين الله •

اعادت المداس الى حضنها وهي تحرص على ان تظل المسافة ثابتة بيني وبينها بينما كنت اقوم بدراسة الموقف وانا اواصل حديثي :
ـ وجئت اسدد جزءا مما علي من دين لك •
ـ ديونك كثيرة وانت مفلس •

مددت يدي بالنقود ، فمدت يدا تتناولها بها بينما تشبثت الاخرى بفردتي المداس ، هذه فرصتي ، هذا المداس سري وعدوي ، خوفي وهمي ، انا الذي اشتريته وانا الذي اهديته فهو مني والي • لماذا اذا يستولي عليه غيري يهددني به ويفضحني ~~دفعتني~~ • دفعتني في صدري يد واستماتت بقبضتها الاخرى على المداسين • طالما قبلت هاتين اليدين رخصتين بضتين طريتين ، والآن نبتت لاحداهما مخالب لبؤة تدافع عن شبلها ، والاخرى لمحت ظهر يدها قريبا من عيني نافر العروق كأنما أراه من خلال مجهر ، قريبا من فمي حتى اغراني ان اعضه بل اقضمه •• لكن يبدو الا سبيل الى انتزاع كنزها المسحور من مجرد معركة محلية مع اليدين ، لا سيما وان صراخها يوشك ان يفسد خطتي • اضرب الرأس تتراخ اليدان • هل مضت ثانية هل مضت ثانيتان ؟ المداس في يدي ، سري معي • أقفلت بابها خلفي وهرولت الى غرفتي • كنت واثقا أن أحدا لم يرني لا على السلم ولا على السطح • وها هو المداس الملعون أمامي أتأمله جيدا لاستوثق من وجوده معي • لكنني اكتشفت ـ ويا لهول ما اكتشفت ـ ان وجوده كله لم يكن معي • كانت هناك قطعة صغيرة منه ـ من المداس الايمن ومن الخلف من جهة الكعب

على وجه التحديد ــ قد انتزعت حديثا منه بلا رحمة • لا شك انني ارغمت على تركها ــ دون أن آتنبه ــ في قبضتها بينما أنا اهرول خائفا فرحا من شقتها ، حاسبا ان انتصاري عليها كان كاملا ، وأنني سلبتها نهائيا سلاحها ضدي • ولكن ها هي ذي ما تزال تحتفظ في اغفاءتهـا بجزء من الكل الذي حسبته معي •

لمسته فبدا اقل نعومة فبعض وبره قد نحل ، شممته فاذا برائحته الان رائحة شمع ذائب او محترق مختلط بعبق بخور او عطور • لم يكن هناك وقت للتردد او الاختيار، علي الان أن اتخلص من بقايا هذا العدو الملعون قبل ان تستيقظ المجنونة من نومتها وتدهمني مطالبة بما لا حق لها فيه • ولئن كان المداس في يدها عدوا خطرا ، فهو الان في يدي عدو أخطر •

اثناء مرضي ظهرت فردتا المداس الحمراوان تطاردانني على جدران غرفتي من جديد ، مرة في الفجر واخرى قبل حلول المساء • ورغم انـي رأيتها بوضوح شديد في المرتين حتى أني تأكدت من القطعة المنزوعـة من الفردة اليمنى من الخلف ومن جهة الكعب تماما، الا انني ادركـت ان هذا قد يكون من تأثير الحمى ، مجرد هذيان ، وعلي أن اتشبث بواقع غرفتي : جدرانها وبلاطها وسقفها ، المنضدة والكنبة والمقعد وكوب الماء• فقد خشيت أن أفقد صلتي بهذا العالم فلا أعود اليه ابدا •

يومها تضاعف احساسي بوحدتي ، يومها اكتشفت اكتشافين : أولهما اني لا أهاب الموت ، وثانيهما أن عدم تهيب الموت لا يعني ــ كما كنت اتصور ــ عدم تهيب ما قبل الموت • فلقد تضاعف خوفي من الالم ومن الحاجة ومن كرامتي أن تهان ، ولقد تماثلت يومها للشفاء سريعا الا أن شبح المرض لا يزال يرعبني ، ويرعبني منه أن يقودني الى عالم الاوهام والهذيان •

يومها اكتشفت ان مخاوفي امتدت لتشمل كل جوانب حياتي :خوفي

من أن أصاب بمرض يقعدني عن العمل ، أن يموت والدي أو والدتي ، أن يكتب عني ناظري او مفتشي تقريرا سيئا •

بعد تماثلي للشفاء اكتشفت أن الوهم في مخاوفي تجاوز الواقع ، مرضت وشفيت ، تعرض والدي لحادث ثأر في البلد ومنه نجا ، لم يسيء الي ناظر ولا مفتش • ومنذ اطلق المحقق سراحي منذ مدة طويلة، ما استراب في إنسان ولا استوقفني ولا استجوبني محقق • اذن فلأنفض الخوف ولأتحرك واثقا مطمئنا • يومها جرؤت وقمت بزيارة زميل في بيته ، جرؤت وتناولت عشائي في ارقى مطاعم المدينة ، وعند عودتي الى غرفتي جرؤت وفتحت نوافذها ونزعت المفتاح من ثقب بابها ، واستغرقت ـ لاول مرة منذ سنوات طويلة ـ في نوم عميق بلا ارق ولا قلق ، يداعبني ضوء القمر وينعشني نسيم الليل •

غير أنه حدث بعد تماثلي للشفاء بحوالي اسبوع ان وصلتني برقية تعلنني نبأ وفاة والدي فجأة وبلا مقدمات • لحظتها اصابني ندم عميق، أدركت أن خوفي عليه ، كان يحميه ، وانني آثرت طمأنينتي وتخليت عن حمايته ، فأتحت للموت فرصته الذهبية ، غافلني واختطفه مني ، هكذا عوقبت على طمأنينتي ، يومها أدركت ان مكافأتي على خوفي الا يتحقق شيء مما اخاف منه ، فاذا تحقق كان وقعه أبسط بكثير مما ضخمته التوقعات والاوهام • من يومها ، اذا اطمأننت خفت واذا خفت أطمأننت• اذا اطمأننت تشاءمت واذا خفت احتميت وحميت • من يومها يقلقني ألا أجد ما يقلقني •

عندما ضربتها على رأسها وقعت وسط الصالة • عندما دخلت مع الشرطة كانت جثتها المتعفنة متكورة فوق الكنبة • النقود التي اخذتها مني ظهر الخميس لم تكن في قبضتها ولا مبعثرة على الارض • بعد أيام جاء تقرير الطبيب الشرعي يقرر ان الوفاة وقعت صباح الجمعة • من يومها وأنا أتحرك ما بين وسط الصالة والكنبة ، وما بين ظهر الخميس

وصباح الجمعة . هذا مكاني وهذا زماني .

لو ارتاب المحقق في كلماتي لحظة واحدة لسردت عليه كل شيء ولتركته يحدد بنفسه ـ على ضوء ما أمده به من وقائع ـ مدى اتهامي ومدى براءتي . لكني تركت كل شيء معلقا فوق رأسي ، لا انا بريء ولا أنا مدان . وهكذا اصبح يخيفني ما يخفيني .

عندما سمح لي بالانصراف لم أصدقه ، كانت نظراته كلها ريبة . سيوهمني بالحرية ليتجسس علي ويحصل من تصرفاتي وحركاتي على ما ينم علي ، فهو لا يريد مني تفضلا عليه بالاعتراف . لو اعترفت فالفشل له . ولكن فلأكن احرص منه ألف مرة ولا احقق له ما يريد .

بقايا المداس ألقيتها ـ في ليل ذلك الخميس وبعد أن حشوته بالحجارة ـ في قاع المجرى القريب . قد يطفو في أية لحظة فيطفو اتهامي، او لعل صيادا ينتشله فيفتح محضر التحقيق من جديد لتثبت القرائن ان عنقي يستحق حبل المشنقة بغض النظر عن الحقيقة التي لا يعرفها أحد ولا حتى أنا .

فيما بعد علمت انهم سألوا الجيران ، وبائع اللبن ، وصبي المكوجي، وجامع القمامة وصديقتين كانتا ترددان عليها .

ولقد حاولت أن أقتل نفسي في هذه اللحظة من حياتي بمختلف الطرق، لكنني اكتشفت اخيرا أنني لا أقتل إلا نفسي . اكتشفت مثلا ان معارفي في تلك اللحظة يكونون جزءا منها جيرانا كانوا أو أصدقاء أو اقرباء ـ مثل ابن عمي الذي كلف نفسه ووكل محاميا عني أثناء التحقيق ـ فعزمت على تجنبهم نهائيا ، أن يعتبروني ميتا وأن اعتبرهم ميتين ، ولقد نجحت فيما بدأت به لكني فوجئت بما انتهيت اليه . فكلما تجنبت جارا أو قريبا أو صديقا احسست ان جزءا من وجودي يتساقط ، حتى لا أكاد اتعرف اليوم على نفسي . بينما اسمي وعنواني ومهنتي ما تزال مسجلة عند من يهمهم محاصرتي ليسدوا علي سبل الخلاص ، تلك مقومات شخصيتي،

تثبتني وتنفيني ، تفضحني وتعريني • معنى هذا آني كلما حاولت الفرار فررت من نفسي دون آن افر من مطاردي ، ودليلي على ذلك اني نجحت سنوات طويلة في تجنب كل من شاهد او سمع هذه القضية في حياتي ، غير أني قابلت منذ أيام ــ ويا للرعب ــ محققي القديم ، ويبدو أنه أصبح قاضيا كبيرا سمينا • كان يجلس باناقته وعطره في صالون القطاراماميِ• عندما لمحني صاح بفرحة : هل من جديد في قضية الشيخةمديحة •حاولت أن أتوهم وأوهم الاخرين ان الحديث ليس موجها الي • غير أن نظراته كانت واضحة فاضحة لا سبيل الى الفرار منها • في هذه اللحظة اكتشفت أن وجودي مسجل على وجهي أيضا برغم ما نبت لي من شارب وما ابيض من شعيرات وما ارتسم من تجاعيد • همست بايجاز شديد ــ تجنبا للفضيحة : لا اعرف • غير أني عدت وجرؤت فسألته متخابثا •

ــ هل القضية ما تزال مفتوحة •

أجابني وكأنه يغني

ملفك باق ، وان تغير المحقق والقاضي • في انتظار اية اضافة ، مهما امتد الزمان ونأت المسافة •

كنت أعلم اجابته قبل أن ينطق بها ، فقط كنت كمن يريد أن يتأكد من شيء يعرفه ، ومع ذلك فان اجابته أرعبتني ، فقررت الا أتقدم اليه بأي استفسار آخر ، لكنه اصر على مواصلة استجوابي : والى اين باذن الله ؟ فكرت لحظة أن أخفي ذلك عنه فأخفي جزءا مني عنه ، لكنني خشيت أن تكون محطته بعد محطتي فيكتشف كذبي مما يؤدي بي الى تهلكة محققة • لهذا لم يسعني الا الاعتراف بحقيقة وجهتي • بعد ذلك حاولت أن اتجنب الحديث معه غير انه كان يرعبني من حين لآخر بسؤال له علاقة ــ أولا علاقة له ــ بقضيتي •

ذات يوم كنت اشرح درسا في علم النفس عندما فاجأني طالب يسألني ، الحنين الى رحم الام او الرغبة في العودة الى المرحلة الجنينية

(الصفحة الحادية والستون من الكتاب المقرر) دفاع عن النفس ام قضاء عليها ؟ ولئن تعودت أن ارتاب فيما يلقيه علي بعض الطلبة الخبثاء من اسئلة ، غير ان هذا السؤال ـــ على غير العادة ـــ اثار حزني العميق حتى كدت أبكي لا سيما وانني لم أكن قد هيأت نفسي للاجابة عليه .

عندما جاء مفتشي ليكتب عني تقريره كان يضحك في ثقة . أعدت عليه سؤال الطالب :

ـــ الحنين الى رحم الام ، دفاع عن النفس أم قضاء عليها ؟

اكتسى وجهه بالكآبة فجأة ، وهمس :

ـ انظر يا ابني ، انه دفاع عن النفس ينتهي بالقضاء عليها .

كان مفتشا متعاطفا متفهما ، يختلف عن بقية المفتشين والنظار الذين عملت معهم ، لعله يتكلم من تجربة عايشها وليس من سطور في الكتاب المقرر ، لهذا لم أهتم بما قد يكون كتبه في التقرير عني .

والان ها هوذا الليل يقبل فأشد رتاج نوافذي جيدا ، وأسد ثقب بابي بمفتاحه كما سددته قديما . لا أتعلم ولا أعدل . ويا رعبي من الليل ، ومن كآبة الليل ، ويا لهول الارق والقلق في غرفتي .

هي حصني وهي مصيدتي ، أعرفها الان بحواسي جميعها : الوان جدرانها ونوافذها وبلاطها ، ما ظل ثابتا منها وما تغير . أركانها العنكبوتية تجاه السقف وأركانها الترابية تجاه الارض . رائحتها عندما تظل مغلقة زمنا يطول ، وعندما أطهو فيها طعامي ، وعندما أفتح دورة المياه الملحقة بها . حتى جدرانها السفلية أعرف مذاقها وملمسها : ملحية هشة بيضاء . ترق يوما بعد يوم حتى ليفزعني أن أجدها ذات صباح قد تآكلت تماما . فتنهار كل خططي من أساسها . أما أصواتها فاني آلفها تماما : أصوات خفية حذرة ، يرعبني منها أن تنبعث من أماكن مجهولة ، تطمئنني محاولة تحديدها . لعلها فأر يقضم بقايا طعام في صفيحة القمامة ، أولعله صرصار يمرح ويلهو في دورة المياه . وثمة أصوات اخرى بعيدة أو قريبة ، فوقها

أو تحتها ، تتضخم في هدأة الليل وظلمته ، قطان يتناجيان أو يتشاجران ، كلب ينبح ، قدم تدب ، أشياء تتكسر ، وكما ألفت غرفتي فهي لا بد قد الفتني بدورها •• دقات قلبي حين تعلو حتى لتشبه دقات طبل وحين تخفت حتى لتوشك على التوقف ، تنفسي حين يسرع وحين يبطىء ، وهي شاهدي على أرقي وقلقي ، وعلى أني ادخلها عائدا من عملي فلا أغادرها الا صباح اليوم التالي وعلى أني لا أزور ولا أزار •

ملاحظة :

قرأت بحكم دراستي ــ ومن باب الهواية أحيانا ــ بعض القصص • أما تعاملي مع الكتابة فقاصر على ما كان يطلبه مني الاساتذة ، وبما كنت اكتبه من خطابات لوالدي رحمة الله عليه الان • وفي مرحلة الدراسة الثانوية كنت أكتب موضوعات انشائية مسجوعة فأحصل على درجات طيبة • لا ازال اذكر اول موضوع انشائي من هذا النوع ، كان في وصف حريق ، وكانت بدايته على ما أذكر على النحو التالي :

في ليلة اشتد حرها ، وعدم نورها ، سمعت اصوات استغاثة عالية ، من منازل دانية ، فخرجت لاعرف ما الحادث وما سبب الكارث ، واذا بشرارة نار ، قد اشتعلت في احدى الديار ، فجعلته هو والارض سواء ، بعد ان كان متصلا بعنان السماء ••

هذا الى جانب قصيدتي الوحيدة الناقصة الوزن والموهبة • تلك هي كل خبرتي بعالم الكتابة • لهذا فاني وان كنت صاحب القصة فلست كاتبها • كاتبها هو صاحب التوقيع في نهاية هذه السطور • فلست من الغباء بحيث أسجل على نفسي كلمات وان كان يمكن أن تدل على براءتي فهي يمكن أن تدل على اداتني ، لست هاوي قصص ولا طالب مجد • كل ما من شأنه ان يعلن عني أتوجس منه ، قد يكون قرينة ضدي تضاف الى سجلي • في الحفلات المدرسية يذهلني زملاء يتسابقون على استعراض ذواتهم خطابة او اشرافا على نشاط تلاميذهم ،

فاشير نحوهم مشفقا : ها هم يقدمون الدليل ضد انفسهم بانفسهم ، ها هم يدينون أنفسهم ، لهذا أخفيت عمري وعنواني — كما ترى — اما اسمى ومهنتي فقد زيفتهما • تلك منافذ شخصيتي سددتها كما سددت الثقب بالمفتاح قديما حتى اقطع الطريق على كل من يبغي علي تلصصا • لا أتعلم ولا أعدل • فهم قد يقبلون في اية لحظة ، يقتحمون علي خلوتي في غرفتي ، غرفة واحدة وحيدة ، اعتصمت بها واعتكفت بعيدا عن عيون الآخرين وآذانهم وانوفهم ، فمجرد وجودي في مكان متسع مزدحم اعلان عن نفسي وما يتلو الاعلان من تعرض للشبهات • لهذا يربكني ويرهقني أن اجلس في مقهى أو ناد ، حيث العيون اللزجة ترصدني وتتفحصني ، تغزوني وتشلني ، وحيث الآذان التي عساها تتصيد شبهة أو شبه شبهة ، وحيث هناك دائما من يتحسسني ويتشممني ، بينما الاخرون يتحدثون ويزعقون ويلعبون ويصفقون ويقهقهون ويشربون ويأكلون ويقبلون وينصرفون ، وانا أتساءل ترى أيهم المتهمون وأيهم الشهود ، أيهم المدانون وأيهم القضاة والمحققون والمدعون ، وأيهم مثلي لا هم متهمون ولا أبرياء ولا مدانون •

وحتى اذا لم يقبلوا فاني أدرك جيدا أني سأنتهي بنهاية هذه السطور لاصبح مجرد ذكرى تضيع بعد فترة — قصرت أو طالت — في زحام الاحياء والاموات •

ملاحظة بعد الملاحظة

أنا خائف اذن أنا غير موجود

يوليو ١٩٦٩

نظرية في الجلدة الفاسدة

المقدمـــة

لم أتنبه الى وجوده الا حين تحرك القطار وانصرفت عن التطلع من نافذته لأراه جالسا أمامي على المقعد المقابل . ومنذ لمحت عيناي عينيه كان واضحا أنه يتلمس وسيلة للتحدث معي ، ولم أكن اقل منه رغبة . فقد ركبت بعد ظهر اليوم من محطة أسيوط ، وقرأت الصحيفة اليومية ولم يبق أمامي الا ان أحدق تارة في الجالسين وتارة في الحقول وأعمـدة التليفون التي تهبط وترتفع وترتفع وتهبط وهي تركض الى الوراء . من محطة المنيا ركب ، وما ان تنبهت اليه حتى حياني في ألفة ، ثم استعـار صحيفتي ، ثم سألني عن الوقت ليضبط ساعته ... الى أن وجدت صوته يعلو ووجهي يقترب محاولين التغلب معا على ضجيج القطار . حينا أفلح فأميز صوته ، وحينا يختلط صوتانا بضجيج القطار فلا اعرف هل هـو صوته أم صوتي الذي أسمع .

... هل تعرف نظرية الجلدة الفاسدة ؟ أنا أقرأ كثيرا في الادب وفي العلوم الطبيعية وأحب أن أطعم هذا بذاك . تقول انك تحب القـراءة أيضا ؟ هذه مجاملة كريمة منك يا سيدي . نظرية الجلدة الفاسدة هي ان تقام اجهزة تكلف آلاف الجنيهات لسحب المياه وترسيبهـا وترشيحهـا وتعقيمها ومد آلاف الامتار من الانابيب لتصل أخيرا الى منزلك ، ولكن

جلدة صغيرة فاسدة في صنبور بيتك تعكر عليك طمأنينتك وتجعل من تلك المياه المرشحة المعقمة تهديدا لك • أنت لا تفهمني يا سيدي ، هذا ظاهر في عينيك • خذ مثلا ما وقع في قريتنا •

••• في قريتنا مثلك يا رفيق جلستي في رحلتي ، واضح من ملابسك ـ ثم من حديثك ـ أنك لا بالقروي ولا بالمدني • تجاوزت الريف دون أن تصل الى المدينة • فها أنت ذا ترتدي جلبابا فوقه معطف ، في معصمك ساعة ، لك شارب خفيف ، عاري الرأس وان كان يغطيها شعر اختلط أسوده بأبيضه ، يشي بأنك تجاوزت الخمسين ، لو قابلتك منذ عشرين عاما لكان على رأسك طربوش بلا شك فمكانه ما يزال محفوظا • في عينيك دهشة ، بك بساطة القروي وجرأة ابن المدينة •

البرهان :

••• في قريتنا مثلا دخلت الكهرباء ومياه الشرب النقيه ، وبها وحدة مجمعة فيها مدرسة ومستشفى ومشرف اجتماعي ومرشد زراعي ولكن ••• وابتلع لعابه وابتسم •

••• يبدو أن في قريتنا جلدة فاسدة ، ليس يكفي أن نقيم بناء ونحضر أطباء ومدرسين، لا بد أن تكون الجلدة جيدة وصالحةللاستعمال سأقص عليك قصة مدرستنا بل خذ الكهرباء أولا على سبيل المثال •• ركبت الاسلاك والمصابيح في طرقات قريتنا وبعض منازلها ، وتشاجر الناس كل منهم يريد مصباحا من مصابيح الطريق أمام بيته ، فهذا دليل من أحدث طراز على الجاه والنفوذ • هذا جميل ، نعم جميل ، لكن ـ والى أن تصل كهرباء السد ـ وضع مولد كهربائي مؤقت له طاقة محدودة •• هل تفهم جيدا في الكهرباء ؟ أنا قرأت عنها الكثير فيما قرأت من علوم طبيعية حتى كونت نظرياتي الكهربية الخاصة ••• المهم أنه حدد عدد المصابيح في كل بيت ، غير أن أهالي قريتنا ، لا سيما القادرين الذين استطاعوا ادخال الكهرباء في بيوتهم ـ لا يعبأون بالتعليمات ولا

يصدقونها . تلك هي الجلدة الفاسدة يا سيدي . ما أن يقام فرح أو مأتم حتى يضاء أكثر من مصباح لم يسمح به ، وماذا تكون النتيجة ؟ يحترق المولد ويعم الظلام قريتنا ، ولا يتم اصلاح العطل الا بعد أسابيع. فالاصلاح غالبا ما يحتاج الى عامل فني او قطع غيار ، وهذا وذاك لا يتوافران الا في المركز ، والنيل بيننا وبين المركز ، فقريتنا على الضفة الشرقية والمركز على الضفة الغربية . وهكذا تضاء قريتنا أسبوعا لتظلم أسابيع .. تصور ..

خذ أيضا مسألة المياه النقية .. ما رأيك في أن القليلين هم الذين يستخدمونها حتى اليوم مع أنها من طلمبات بجوار بيوت القرية مباشرة؟ أما الاكثرية فما تزال تفضل ملء الجرار من النيل حيث يوجد شاطىء رملي يحتاج خوضه الى ربع أو ثلث الساعة على الاقل ، تصور ... أما أنا فقد اكتشفت حلا وسطا ، ليس بين الاقلية والاكثرية في القرية بل بين الاقلية والاكثرية في بيتي ، أعني بيني وبين زوجتي ، هأ هأ هأ .. الماء النقي للغسيل والاستحمام ، أما ماء النيل فللشرب ، نعم للشرب ، لان السيدة زوجتي تصر على أن ماء الطلمبة غير سائغ ، أما مياه النيل فهي بخيرها .. تصور .. خذ أيضا مدرستنا أقصد أولا مستشفانا ...

جذبت محاضرة الرجل أسماع بعض الجالسين وان كانوا لا يتابعون الحديث بانتظام بل ينتبهون الى فقرات منه ثم يبدو أنهـم ينشغلون بأحاديث جانبية أو بالانطواء على أنفسهم . كانت الى جانبنا سيدة ميئوس منها أن تنضم الى جمهوره ، مشغولة بطفلها ، يرضع حينا ، يبكي حينا ، تغير ملابسه الداخلية حينا ثالثا . وربما قد ناله شبه ارتياح حين غادرت القطار في محطة مغاغة ليحل محلها شاب ــ لعله طالب جامعي ــ لا يشغله عن الاصغاء شاغل .

خذ أيضا مستشفانا .. لكم فرح بها أهل قريتنا لانها ستوفر عليهم مشوار المركز وعبور النيل بمرضاهم اذا سمحت حالتهم ، أما اذا لـم

تسمح فأمرهم الى الله والى حلاق الصحة .

في أول الامر أتانا طبيب في حوالي الاربعين ، قال عنه أهل قريتنا انه لا بد وأن يكون في الاصل ممرضا ثم دخل كلية الطب على كبر ... يبيكن المركز ، مشغول بأسرته هناك . يأتينا ساعة واحدة في الصباح ... ليته كان يأتي كل يوم هذه الساعة ، يومان فقط أو ثلاثة أسبوعيا . ليته كان يأتي هذه الساعة بانتظام في الايام التي يشرفنا فيها بزيارته ... مرة في العاشرة وأخرى في الحادية عشرة وأحيانا في الثانية بعد الظهر تصور ... على المرضى أن ينتظروا وهم وحظهم . المفروض أن يكون هناك طبيبان في الوحدة ، لكن يبدو أنه لا يمكن الا اقناع طبيب واحد في وقت واحد بالعمل في قريتنا . المهم شكاه الاهالي الى رؤسائه دون جدوى ، حتى كانت ليلة لدغت فيها حشرة مجهولة يقال انها «الدفانة» ، هل تعرفها ؟ لا ليست عقربا ولا ثعبانا ، انا لم أرها انما وصفوها أمامي فاذا هي أشبه بالسحلية . يقال انها اذا أحست بالخطر دفنت نفسها في الارض فلا يظهر لها أثر ... المهم أنها لدغت ابن الشيخ عبد الحفيظ ، شيخ من شيوخ قريتنا له مكانته ونفوذه ، فأسرع به أبوه الى الوحدة حيث قامت الحكيمة الموجودة باسعافه وحقنه حقنة مضادة لسم العقرب ، غير أن الشاب فاضت روحه بعد ساعات قبيل الفجر ، وقيل لو كـان الطبيب موجودا فربما تم انقاذ الشاب ، وقد لا يكون هذا صحيحا والله أعلم ، المهم أن ضجة الاهالي وصلت هذه المرة الى آذان المسئولين فنقلوا الطبيب ، الى أين ؟ الى قرية أخرى ، وربما الى ترقية ...

جاءنا طبيب آخر ، بخلاف سلفـه تماما . شاب صغير متحمس للمهنة ، قرر أن يقيم في الوحدة رغم انقطاع الكهرباء معظم الايام ، ورغم كثرة البعوض الذي لم يألفه ، لا يفارقها الا ظهر الخميس ليعود صباح السبت . كان مثاليا — أو هكذا كان على الاقل في نظري — حتى أنـه كان يرفض ان يقبل قرشا واحدا ، ولو استدعى للكشف على حالات في

بيوت القرية • كان منظما في عمله فثمة ساعة للمرضى مـن السيدات والاطفال وأخرى للرجال ، وثالثة لحقن المرضى بالبلهارسيا بالطرطير وهكذا ••• فساعاته في النهار الواحد صورة مصغرة لاقسام المستشفى الكبير بالمركز •• لكن طبقا لنظرية العبد لله ، نظرية الجلدة الفاسدة يا سيدي ، بدأ الناس يهمسون أولا ثم تحول الهمس الى اصوات مرتفعة : ان الطبيب لا يبيت في الوحدة حبا في عيون الاهالي ، بل حبا في عيون الحكيمة ، وهذا مما تأباه عليهم رجولتهم ، وكرامتهم وشهامتهم ••• اسمها عايدة ، كانت حلوة حقا ، أهلا للحب حقا •• أنا لم أكن أصغي الى هذه التقولات مصدرها الرئيسي عبده آفندي أمين المخازن ومحمود أفندي مساعد المعمل ، أما العاملات بالمستشفى كالممرضة ومساعدات المولدات ، فلم أسمع أنهن تفوهن بشيء • وهذا هو سر شكي • لقد درست علم النفس قبل أن أهجر المدرسة الثانوية أو تهجرني ، ثم واصلت قراءته بعد ذلك حتى كونت لي نظريات مدونة في كراسات قد أطلعك عليها يوما ما ، أهمها النظرية الكهربية الجنسية •• كل رجل عندما ينظر الى أنثى تخرج من عينيه أشعة كهرطيسية أي كهربية مغناطيسية تخترق ملابسها وتنجذب الى جسدها فتجذبها الى الرجـل • هذا هو تفسير الجاذبية الجنسية ، وتتناسب درجة توصيل هذه الكهرطيسيـة تناسبا طرديا مع جمال المرأة وخفة دمها ، كلما كانت أجمل أو أخف دما كانت موصلا جيدا ، وتتناسب تناسبا عكسيا مع عمرها ، كلما تقدمت في السن أصبحت أردأ توصيلا •• هل تعرف أني من خلال أدق العلاقات بين الرجل والمرأة توصلت الى نظرية في الخير المطلق ؟ فالخير المطلق هو ما تقوم به من عمل بسعادة تساوي تماما سعادة من يتلقى هذا العمل ، هو العمل الذي فيه تؤكد ذاتك وتؤكد غيرك في الوقت نفسه فتصبح سعادتـك وسعادة غيرك فعلا واحدا ، بحيث لا تدري هل أنت تحقق رغبتك أم رغبة غيرك فلا تكون هناك سوى رغبة واحدة تتحقق • اذا حدث هذا

بين الفرد والفرد كان هو الخير المطلق ، فاذا حدث بين الفرد والجماعة ، كما في حالة الفنان أو العالم الذي يسعد بعمله وفي الوقت نفسه يسعد الآخرين ويفيدهم فهو ما وراء المطلق ، أما اذا حدث بين جماعة وجماعة كأن يكون بين دولة وأخرى فهو المطلق المطلق • هذه مصطلحاتي أنا لن تجدها في أية كتب • لا تؤاخذني فلست استطيع اغفال هذا التشابه ــ أقصد الاتصال الوثيق ــ بين النشوة الحسية والنشوة والنفسجتماعية • هذا مصطلحي أنا أيضا ، يجوز انك قرأته من قبل ، لا بد ان يكون ذلك في لغة أجنبية ثم ترجمته لنفسك ، اما انا فلا أذكر أنني عثرت به فيما قرأت ، المهم انني اطلعت على أكثر من نظرية لمن يسمونهم علماء الاخلاق دائما كنت أحس أن هناك شيئا ناقصا فيما يقولون ، اتعرف لماذا ؟ لانهم لم يفطنوا الى قانوني أنا ، والا لاراحوا واستراحوا ، ولما وجد الخلف منهم ما ينقد به السلف •• نعم نعم •• التضحية لون من ألوان الخير لكنها ليست الخير المطلق يا سيدي ، التضحية ان تتألم في سبيل سعادة غيرك ، هذه درجة اقل من درجات الخير ، لماذا لا يبعد الطرفان اذا لم تكن هناك ضرورة للتضحية ؟ اما الشر فهو أن يشقيك عملك ويشقى غيرك بهذا العمل ، أقصد هذه درجة من درجات الشر ، أما اقصى درجاته فهو ان يشقى غيرك لتسعد أنت كما يحدث عندما يسعد المعتدي ــ فردا او دولة ــ على أشلاء ضحيته ، لا يدري انه قد وضع بذلك أسس الشر الذي سينقلب عليه يوما ليلتهمه كما التهم هو به غيره • هذا قانون أزلي أبدي ان لم يتحقق في حياة الطغاة ــ أفرادا أو دولا ــ تحقق في حياة من يتلوهم من الابناء والاجيال • هل تعرف انني طبعت نظريتي هذه في كتيب مذ حوالي عشرين عاما ، وهنا في صحيفة اليوم ــ وعلى صفحتها الاولى ــ يقولون ان العلماء وضعوا جهازا دقيقا في عين الارنب الذكر ، فوجدوا ان ضغطه يرتفع كلما نظر الى احدى اناثه • لم يذكروا تعليلا لهذه الظاهرة ، أما انا فقد عرفتها وعللتها منذ عشرين عاما في كتيبي : انها

الاشعة الكهرطيسية التي تخرج من عيني الذكر أرنبا كان أو أنسانـا • لقد أرسلت نسخة منه الى اسماعيل صدقي رئيس الوزراء في ذلك الوقت سأرسل اليك نسخة لو تفضلت باعطائي عنوانك • هل تراني استطردت لا تؤاخذني ، هذه احدى عاداتي السيئة ••• المهم أنني أدركت ــ ولعلك توافقني على ذلك ــ ان بعض الاهالي عبروا عن رغبتهم في الحكيمة من خلال اتهامهم الموجـه للطبيب • فـاذا اعتبرنا العاملات الاخريـات في المستشفى لا ينتمين الى جنس النساء ، أو طبقا لنظريني رديئات التوصيل كانت عايدة هي السيدة الوحيدة في قريتنا التي تختلف عن نسائنا فيمـا ترتديه وفيما تكشف عنه وتخفيه ، وفي صلتها ــ بحكم عملها ــ بالرجال من آهل قريتنـا : الشباب المحـروم من المـرأة ، والازواج المحرومين ــ أمثالي ــ من غير زوجاتهم هأ هأ هأ •• هيء هيء هء •• المهم أنهالت الشكاوي مرة أخرى على المسؤولين في المركز والمحافظة • والنتيجة نقل الحكيمة ونقل الطبيب لتحرم القرية شهورا من أي علاج صحي حتى يتم تعيين طبيب آخر وحكيمة جديدة ، أنت تعرف احيانا ما تبطيء الامور •

هدأت عجلات القطار فهدأت حماسة الحديث كأنما لتظل النسبـة محفوظة بينهما ••• بينما العرق ينضح على جبهته •• يبدو أننا أشرفنـا على محطة سيقطع فيها حديثنا ذهاب الناس ومجيئهم ، وصيحات الباعة والمودعين والمسافرين • فآثر ان يتوقف عن الحديث حتى توقفت عجلات القطار تماما ••• بعض الجالسين أطل من نافذة القطار يشترون طعـاما أو شرابا فحجبوا ما بيننا ••• نظرتي الآن اليك يا مبدد وحشتي ومؤنس وحدتي في سفرتي قد تغيرت • لم أعد أحس أنك تلقى علي محاضرة بقدر ما أحس أنك تروي لي قصصا ، ربما على طريقة الف ليلة وليلـة ، قصة وراء أخرى ، كأنما لديك منها فيض لا ينتهي • فلما دوى صـوت الجرس وتحرك القطار ، انجاب حجاب الناس عـن أعيننا وانخفضـت أصواتهم ليرتفع دوي العجلات من جديد ، بينما اصبح الطالب المجاور

الآن أكثر اتباعا •

••• فمنذ حوالي عام وفد علينا الدكتور شنيطة ، ليس هذا هو اسمه ، أظن انه اسم أبيه أو أسرته ، اسمه هو فؤاد ، لكننا نفضل ان نلقبه بالدكتور شنيطة ، اسم تسمعه مرة فلا تنساه ، لم يهمل قريتنا كأول طبيب جاءها ولا هو تفانى في خدمتها كما فعل سلفه • سكن المركزليقتل ليله بملاهي ما قبل الزواج ، ابن عمدتنا لعب معه وشرب أكثر من مرة في أندية المركز الخاصة • في كل صباح يعبر النيل الى قريتنا حيث يقضي فيها ساعات العمل ليعبر النيل مرة أخرى عائدا الى المركز • في هذه الساعات التي يقضيها في قريتنا كأنما آل على نفسه ان ينتقم لزميليه المطرودين ، لا لحسابهما ، بل لحسابه ، ذلك أنه أحال الوحدة الحكومية الى عيادة خاصة له • الكشف بثلاثين قرشا ، وفي المنازل بجنيه كامل • الادوية المجانية تباع • كل تحليل له تسعيرته ، العمليات الجراحية بالمقاولة السرير في المستشفى بنصف جنيه في اليوم • وكان لمساعد المعمل ومعاون الصحة والكاتب وأمين المخزن والممرضة أيضا نصيب من الغنائم : الغيار بثمن والحقنة في العضل لها ثمن وفي الوريد لها ثمن • تقول كيف رضيت قريتنا بذلك ؟ أقول بل ان القرية هي التي طلبت ذلك ، بل اجبرت طبيبها عليه ••• تصور ••• نظرية الجلدة الفاسدة التي لا تخيب أبدا يا سيدي ••

فعندما وفد الدكتور شنيطة ، كان يقبل عليه مرضانا فيكشف عليهم مجانا ، ثم اتضح أنه لا يصف لهم ــ أو لأكثرهم ــ اية ادوية ، فاذا سئل عن سبب ذلك ، اجاب بان الدواء غير موجود بصيدلية المستشفى ، اذن فلتصف يا دكتور الدواء المطلوب ليشتريه المريض أو أهله من صيدلية أخرى ، لكن لا ، هذا خارج عن نطاق عملي •• لكن سلفيك لم يفعلا هذا •• انهما اذن لم ينفذا التعليمات والا فلماذا نقلا ؟؟ وهكذا اصبح لا جدوى م ن الكشف عند الدكتور شنيطة • فلما استدعي مرة للكشف

على زوجة مهيوب عبد الباسط في البيت اعلن ان هذا ايضا خارج عن نطاق عمله في المستشفى وعلى المريض أن يأتيه الى مكان عمله ، تصور .. ولما كانت زوجة ميهوب يهددها نزيف خطير فقد استعطفه الرجل وقبل يديه ، ثم قبل قدميه ، واستعان عليه بوجهاء القرية ، شيوخها وفقيهها بل وعمدتها . واخيرا اعلن محمود مساعد المعمل ان الدكتور شنيطة قبل ان يقوم بهذا الكشف الخارج عن حدود عمله في مقابل جنيه واحد ، أما انا فقد ادركت اللعبة ، ألم أقل لك انني درست علم النفس ولي نظريات فيه ؟.. فبعد هذه المقدمة وهذا التمنع كان هذا تفضلا وتنازلا منه .. غير ان المفاجأة الثانية حدثت بعد توقيع الكشف ، فقد وصف الدكتور شنيطة للمريضة أدوية غير متوفرة في صيدلية مستشفانا ، أليس هو الآن خارج حدود عمله ؟ المهم كانت هذه هي البداية ، ثم اصبحت امرا مألوفا، حتى ان بعض القادرين من أهل قريتنا ممن كانت حالة مرضاهم تسمح بالذهاب الى المستشفى قد استدعوه للكشف على هؤلاء المرضى في منازلهم ودفع الجنيه لمجرد أن يصف الدواء الملائم ، وأخيرا تنبهت القرية الى أن ذلك سيكلفها كثيرا ، فلماذا لا يتم الاتفاق مع الدكتور على أن يكون الكشف في المستشفى في مقابل مبلغ اقل ما دام المريض يريد وصف الدواء الضروري بغير اشتراط وجوده بصيدلية المستشفى ؟ ولقد اخطأ ميهوب حين تطوع بعرض هذا الرأي على الدكتور مباشرة ، لأن الرجل ثار في وجهه واتهمه بقلة الادب ، فرأى عقلاء القوم ان يوسطوا محمود مساعد المعمل ، ورأت نساء القرية ان يوسطن الحكيمة والممرضة كذلك . ومع أن أحدا لم يتفق مع الدكتور شنيطة نفسه ، ومع أنه لم يتسلم مليما واحدا في يده حتى هذه اللحظة فالاتعاب يتسلمها محمود الا أن الاتفاق تم بطريقة شبه تلقائية على فئات الاجور المختلفة . في هذه الاثناء حدث تطور غير ملحوظ .. الظلام ينتشر من حولنا على الحقول وعلى تلال المقطم وراء الحقول حتى لكأننا مسافرون نحو الليل ، نسمة

خفيفة هبت لتلطف من حرارة الجو وتمسح العرق عن وجه محدثي ، وقد أخذت بقاياه تبرق على بشرته في ضوء المصابيح الكهربية الخافتة من سقف القطار .. وشخير أحد الجالسين ارتفع حتى أيقظته طرقات المحصل فانقطع الشخير لحظة ليعود من جديد .. وأهل القرية قد اكتشفوا شيئا فشيئا أن مساعد المعمل على استعداد لان يوفر عليهم مشقة عبور النيل لشراء هذه الادوية التي يصفها الطبيب ولا تتوفر في صيدلية مستشفانا. ورحب الاهالي بذلك طبعا ، وبدأ مرضانا يشترون من محمود ما يصفه لهم الدكتور شنيطة من ادوية ، ثم اكتشفوا ان بعضها ادوية مما كانت تعطي لهم بالمجان من صيدلية المستشفى من قبل ، وقيل ان ادوية المستشفى نفدت، وان هذه ادوية مماثلة، واختلط الامر على الناس، ولم يعودوا يهتمون بمحاكمة الطبيب أو مساعديه، حتى افقر الفقراء كان لا يذهب الى الدكتور شنيطة الا بالثلاثين قرشا في جيبه، فقد اصبح منطق أهل القرية أنهم «يكسرون عينه» بهذه القروش. وقد أرسلنا ـ انا وبعض من ثار على هذا الوضع ـ نشكوه الى رؤسائه بالمحافظة، فقوبلنا من أهل القرية بالاستنكار والتأنيب ، غير أن هذا لم يستطع أن يخيفني . لا يخدعك مظهري فقد كنت وقتها لا اخاف احدا . صدقني . ولما عبر المحققون النيل تمسكت باقوالي ولم اعدل عن حرف منها بينما تراجع البعض وتناقض الشهود ، فحفظت الشكوى باعتبارها كيدية .. آه .. نسيت ان اذكر أن الدكتور شنيطة كان حريصا على معالجة وجهاء القوم وأسرهم ـ وعلى رأسهم عمدتنا ـ بلا مقابل ، ومن يومها سارت الامور على ما يرام .

والآن أستطيع ان اقص عليك قصة مدرستنا .. اغفر لي ثرثرتي ، لا احب أن اضايقك ، لن اذكر الا قصة أخيرة عنها وقعت في العام الماضي والا فكيف تقطع الوقت ، لعله هو الذي يقطعنا ... هيء هيء هيء .. المهم ان في قريتنا مدرسة ابتدائية فقط ، هذا طبيعي ، وان كان يقال انه

ربما بعد تلاث سنوات او اربع سيفتح بها فصل اعدادي والله اعلم . المهم ان مدرسيها ومدرساتها العشرة يسكنون المركز جميعا .. تصور .. اما ناظرها فهو من احدى قرء الغرب .. هيئة التدريس كلها اذن تعبر النيل صباحا الى قريتنا وتعود فتغادرها ظهرا ، الولد منصور فراش المدرسة هو الوحيد من اهالي القرية ، يفتح أبواب المدرسة صباحا ويأتيها بعض الاطفال ليلعبوا في فنائها حتى العاشرة واحيانـا الحاديـة عشر صباحا تصور ... عندئذ فقط يبدأ مدرسو المدرسة ومدرساتها في التوافد . بعضهم ياتي وبعضهم لا يأتي ، وان كان والحق يقال ان ناظرهم أقلهـم تغيبا ، هكذا تسير المدرسة بالبركة .. أما جانب المفتشين فلا خطر منه ، فسيادة المفتش لا يستطيع ان يفد الى قريتنا الا بعد الاعلان عن مجيئـه حتى تدبر له هيئة التدريس مـن يرسل له مـن الاهالي ركوبة علـى « البحر » بدلا من ان يخوض رمال الشاطىء لمدة ربع او ثلث الساعة . أما المدرسات فلا مانع لمن يحضر منهن ان يتركن الاطفال يلعبون واحيانا يتشاجرون الى درجة التضارب وهن منشغلات بالثرثرة او اشغال التريكو . بالاختصار مدرستنا ــ على رأي المثل ــ مولد وصاحبه غائب . الجلدة الفاسدة مرة اخرى يا سيدي . لا غرابة اذن ان ينفض اكثر الاطفـال عن المدرسة ، فأهلوهم وزراعاتهم اولى بهم . اما الحريص على تعليم طفلـه فيرسله الى المركز ليتعلم في احدى مدارسه الابتدائية اذا كان له أخ في المدرسة الاعدادية او الثانوية هناك ، حيث تستأجر كل مجموعة من طلبة قريتنا شقة يتقاسمون غرفها كما يتقاسمون طعامهم ، يعودون كل اسبوع عابرين النيل الى قريتنا ليأخذوا زادهم من الطعام ، ورؤية اهليهم واقاربهم وأحبابهم . أما الحل الآخر فهو ان يترك الطفل لذكائه يتكفل به في تلك المدرسة مـع الاستعانة مـن حـين لآخر بالمدرس الخصوصي الوحيـد

في قريتنا . وفي العام الماضي استطاع ستة من الاطفال ان يواصلـــوا دراستهم حتى السنة السادسة الابتدائية ، لا تحسب اني اقصد بالمواصلة النجاح من سنة دراسية الى اخرى ، فما اسهل النجاح في امتحـــانات النقل في مدرستنا ، فنتيجتها دائما مائة في المائة ، انما اقصد بالمواصلـة عدم التفات الاطفال أو آهلهم الى مغريات اللعب او المعاونة في العمـل وهجر الدراسة الى الابد . ولقد ادرك اهالي هؤلاء الاطفال آن نجـاح ابنائهم في امتحانات القبول امر مشكوك فيه ، فلجنة الامتحان لا تعقـد بالقرية بل في المركز ، والمراقبون والمصححون غرباء عن أولادهم ، هناك لا مجاملة ولا تساهل ولا حرص على أن تكون النتيجة مائة في المـائة فما عساهم فاعلون ؟ ليس امامهم يا سيدي الا طريق واحد سلكه غيرهم او سلكوه هم من قبل مع اطفالهم الآخرين .

فصالح أحد المتعلمين القلائل المقيمين في القرية ، كل من يتم تعليمه في قريتنا يهجرها الى العاصمة او الاسكندرية او على الاقل الى المركز على الشاطىء الآخر . فقريتنا خيرها لغيرها . وقد يزور هؤلاء المتعلمون قريتهم في أول عهدهم بالوظيفة ، يأتون أولا فرادى ، ثم يصطحبـون زوجاتهم المدنيات بينما المربيات يحملن اطفالهن الرضع ، غير آن الزيارات ما تلبث ان تتباعد بتأثير الزوجات .. فاذا مات الاباء ، انقطعت زيـارة الابناء فيما عدا قلة تظل على اخلاصها لقريتنا . اما صالح فرغم انه حصل على الكفاءة منذ اكثر من ثلاثين سنة ، وحين كان في العشرين من عمره ، الا انه لم يهجر قريته وان هجر مهنة الفلاحة ، تزوج ابنة عمـه دون ان ينجب منها ، هي ترىهذا سوء حظ ويراه حسن حظ . المهم أنـه عمـل بمدرسة صغيرة في قرية مجاورة ، كان هو مدرسها الوحيد ، فاذا عـاد منها ظهرا أنفق بقية يومه في كتابة عرائض الفلاحين وشكاواهم كمـا كان ينفق جانبا من الليل في جلساته المفضلة مع العمدة ومشايخ القرية وحلاق الصحة يتحدثون في السياسة وغير السياسة . اما الجانب الاكبر من الليل

فينفقه في قراءة كتب السحر ومخاطبة الارواح وعلم النفس والنظريات العلمية ، ومن هنا كان اصدق اصدقائي ، بل لعله صديقي الوحيد في قريتنا ، لا سيما منذ بترت ساقه اليمنى على اثر مرض اصابها .

فلما افتتحت الحكومة مدرستها اغلقت مدرسة القرية المجاورة كما اغلق كتاب قريتنا ، ومع ذلك لم يهجر صالح مهنة التدريس التي عشقها وعشقته . حاول اولا ان يلتحق مدرسا بالمدرسة الجديدة ... فقيل له امامك عقبتان : عمرك وساقك ، مع انه كان سيصبح المدرس الوحيد من قريتنا ، فلا يقف النيل حجة معه في التأخير حضورا والتبكير انصرافا ، فلما حيل بينه وبين رغبته جعل منه الاهالي مدرسا خصوصيا لأطفالهم لا سيما اذا كانوا في صف القبول للاعدادي . وهذا ما تعلمه أهالي الاطفال الستة . اتفقوا معه أن يتولى تدريس ابنائهم جميع المواد المقررة . فكنت تراه عصر كل يوم وهو يعرج بساقه الخشبية بين بيوت هؤلاء الاطفال .. نصف ساعة مع كل طفل يوميا ما عدا الخميس والجمعة . أما تحصيل الاجر فقد تكفلت به زوجته ، تمر على بيوت الاطفال يوم السوق من كل اسبوع لتجمع بعض البيض او الزبد او كيزان الذرة اجرا على مجهود زوجها ، هل تصدق ان شخصية هذه المرأة ألهمتني احدى نظرياتي الهامة ؟ من خلالها اكتشفت ان الشخصية القوية هي ببساطة الشخصية التي لا ترى الا وجهة نظرها . أما الشخصية التي تقيم وزنا لوجهات النظر الاخرى فهي تدفع هزيمتها ثمنا لانصاف الآخرين ... انها تقيم في داخلها عيونا للخصم . واول ما ينطبق ذلك على صالح وزوجته فيما يقوم بينهما من خلاف ، هي لا ترى الا وجهة نظرها وهو يرى وجهة نظره ووجهة نظرها . وماذا تكون النتيجة ؟ هي تقنعه وهو لا يقنعها ، هي دائما على صواب وهو دائما على خطأ ، وهي الضحية في النهاية . تصور .. أهالي بعض الاطفال الذين يقوم صالح بتدريسهم فقراء . يتخرج من تحصيل اجر منهم ، اما هي فتصر على أن

تأخذ ما تسميه « حقهما » والا فكيف يعيشان ولماذا يصر هؤلاء على تعليم اطفالهم ، بتصرفاتهما تحرج صالح وتعجبه في الوقت نفسه • لهذا ترك لها مهمة تحصيل هذا « الحق » لعله يريح ويستريح واعتادته القرية• ذاكرته مشغولة بدراساته وتدريسه ، اما هي فذاكرتها متفرغة لما يسميه تفاهات الحياة وتسميه هي ضروراتها ، وتستغل هي تلك الذاكرة حتى فيمـا ينشب بينهما من عراك ، فتذكر اهاناته لها وتفحمه بذكر تفصيلات ووقائع حتى ولو كان قـد مضى عليها عشرون عاما ، بينما يحاول هو عبثا أن يتذكر شيئا مما بدر من جانبها ولو كان منذ ساعات ، مما يضعف موقفه تماما ويجعل لها السيطرة في المعركة ولحجتها التفوق ، يصفونه في القرية بأنه طيب ، لاحظت أن ذلك لم يحدث له ، أو ربما لم يتطور وينضخم ، الا بعد أن بترت ساقه ، لعله يراعي ظروف غيره لانه في حاجة الى من يراعي ظروفه ، ولعل الطيبة يا سيدي تعبير مهذب عن الضعف • أمـا هو فيصف زوجته بأنها قادرة ، ويزعجه أن تبدأ به حتى لتدين تصرفاته، فاذا وقع منها التصرف نفسه بررته • يقول انها شخصية مصمته لا تنفذ اليها وجهات نظر الآخرين • هي تبدأ المعركة دائما ، فاذا ارتفع صوته محتجا مدافعا عاقبته بالصمت ، أو بتعبير أبسط خاصمته ، انها تدرك شهيته للكلام ـــ أو على حد تعبيرها ـــ نهمه للثرثرة ، فتعاقبه بحرمانه من حاجة ضرورية له ضرورة الشراب والطعام • بل انه يحس فعـلا احساس المحروم من الطعام فيتحمل الصمت يوما أو يومين ، غير أنـه ما يلبث أن يحس جوعا حقيقيا للكلام معها ، لا يغنيه عن ذلك ما يثرثر به أمام الناس ، فهو لا يستطيع أن يقول لهم كل شيء ، ولا أن يفضي اليهم بهمومه وأسراره • وهكذا يشعر بالوحشة والوحدة •• هل تعرف أني قسمت حاجات الناس الى ثلاثة انواع : حاجات ضرورية لوجود الانسان لا يصحب تحقيقها متعة له كالتنفس ـــ الا اذا كان يستنشق عطرا • وحاجات غير ضرورية لوجوده يصحب تحقيقها متعة ـــ وأي

متعة ــ كغريزة الجنس ، فهي ليست ضرورية لوجوده كفرد على الاقل.
وحاجات ضرورية لوجود الانسان ويصحب اشباعها متعة في الوقت نفسه
كالطعام . وحاجة صالح الى الكلام كانت من هذا النوع الثالث . لا تقل
انها ليست حاجة ضرورية ، فقد لا تكون كذلك بالنسبة لك أو لغيرك ،
ولكن ليس بالنسبة لصالح أبدا .. لهذا فانه يجد نفسه مدفوعا الى
تحطيم جدران الصمت التي أقامتها زوجته بينهما ، فيتحايل على ذلك مرة
بعد آخرى مدركا من خلال قراءاته ــ وربما من خلال تجاربه معها ــ
انها لا بـد وأن تكون هي الأخرى قد تعذبت بما وقعت عليه مـن
عقابه . واخيرا يحدث في احدى الليالي دائما أن يجدا نفسيهما يتقاربان
ويتهامسان ويتلامسان ، وقد جاع كل منهما الى الكلام وغير الكلام ،
وان خفتت الشحنة الكهربية الجنسية بينهما ــ طبعا بسبب تقدم العمر
طبقا لنظريتي ، وربما بسبب معيشتهما معا وجها لوجه يوما بعد يوم ــ
فاستحال ما بينهما الى علاقة لا هي بالألفة الخالصة ولا هي بالجنس المتقد،
بل هي عاطفة بين بين ... ومن يدري فلعله لولا الصوم الذي تصطنعه
زوجته من حين لآخر ما أمكن أن يشحن من جديد ما يعمل الزمن على
تفريغه بينهما ... هل تعرف أني قسمت العمر الانساني الى أربع مراحل،
كل مرحلة منها عشرون عاما : المرحلة الاولى استكشاف الانسان لعالميه
الخارجي والداخلي ومحاولة الوصول الى معادلة توازن بينهمـا ، فهي
مرحلـة الاكتساب والاختبار والانفعال ومعاناة الفرحـة بعد الحصول
والصدمة بعد الفشل ، تليها مرحلة الخروج من سديمية الطفولة الى معالم
الشخصية الواضحة ومحاولة الوقوف على أرض ثابتة ، فتتبلور للانسان
اهتماماته ويصبح له عمله وبيته وزوجه وأبناؤه وأصدقاؤه ، وزملاؤه
ومعارفه ، بالاختصار يتحدد مكانه من العالم . أما العشرون الثالثـة
فتنكسر فيها حدة الانفعالات وتهدأ العواطف ، اذ لم يحن الوقت بعد
ليصبح العالم كله مرفوضا في حاجة الى تغيير من أساسه وليصبح الماضي

كله ذهبيا يستحق البكاء عليه • الانسان في هذه المرحلة أكثر تقبلا للواقع وأكثر ادراكا الى آن تقدم العالم يسير مزدوجا في الخير والشر على السواء ، وتصبح هذه السنوات العشرون سجينة السنوات السابقة ، فلا فكاك مما تحدد للانسان ومما حدده لنفسه من قبل من عادات واهتمامات وعلاقات • فاذا كانت العشرون الرابعة أصبح الانسان أكثر تفكيرا في الموت ، حينا يتقبله ويرحب به بل ويطلبه ، وحينا يخاف منه ويقاومه بل ويعاديه ، ولعل تقبله له ليس الا محاولة للتغلب على خوفه منه • فهو يرى بعينيه مكونات شخصيته تموت شيئا فشيئا • تقاليد جيله وابناء جيله ، أصدقاؤه وآقاربه ومعارفه ، حتى عاداته واهتماماته يمنعها أطباؤه عنه ، أما عمله فيسلب منه لينضم الى متحف ذكرياته ••• طبعا في قريتنا تختصر هذه المراحل كل منها ربما الى النصف ، كما أنها لا تنطبق على البعض أو على الاقل في لحظات من حياتهم ، فأنا مثلا وان كنت في أواخر العشرين الثالثة الا أنني أحس أنني ما أزال في العشرين الثانية ، بل أحيانا ما أحس أنني في العشرين الاولى •••

اسمح لي بأن أهمس لك بسر ما باح به صالح لاحد من قبل : في بداية زواجه كان يمارس الحب يوميا الا اذا حال بينه وبين ذلك حائل، كأن يكون على سفر أو مرض أو ترغمه هي على الصوم • الى آخر هذه الاسباب التي لا بد تعرفها، نعم نعم كل يوم ، تصور قوة متدفقة عارمة رعناء يتباهى بها أمام زوجته وتؤكد لها فحولته • فلما اتخمه الشبع ودب فيه الوهن تقلصت رغبته ــ لا سيما منذ بترت ساقه ــ فأصبح في حاجة الى ما يغريه ويثير شهيته ، وكان ذلك يحدث في ليلة الجمعة من كل أسبوع حين يستحم فيحس بانتعاش غير عادي كأنما عاد اليه شبابه من جديد ، وكانت زوجته تخرج أيضا من حمامها الاسبوعي ليكتشف أن أنوثتها الغاربة قد استعادت اشراقها ، فزالت عن بشرتها طلائع ذلك الملمس الخشن المنتشر في خفية وتلكؤ هنا وهناك بحيث يكاد يلمس ولا يلمس وهو يزحف

ويتسلل مع الزمن يوما بعد يوم ، فاذا بجسدها قد أصبح أكثر ليونـة وبشرتها أكثر نعومة وقد تضوعت منها رائحة ندية دافئة توقظ أحاسيسه وتنتشي بها عواطفه ، أما الآن ... بيني وبينك الليلة الاولى لا تعدلها ليلة أخرى ، فيها لذة الاكتشاف ونشوة الحصول والدهشة والمفاجأة وامتحان الحلم أمام الواقع ، وهو ما لا يتكرر — ولا يمكن أن يتكرر — في أية ليلة اخرى . لهذا انا أفهم زير النساء وادرك موقفه وان لم اكنه ولن أكونه، انه يريد ان يجعل كل لياليه ليلة اولى، لا يريد ان يتزحزح عن لحظة الاكتشاف والحصول ، انه يسأم التكرار ولا يطيق الالفة ، تعلقه باحدى النساء لا يحصنه — كما يحصن غيره ضد الآخريات ... المهـم أظنك تعرف الآن لماذا أدركت أنا من خلال هذه المرأة أنه ليس هناك حق أو باطل منفصل عن شخصية صاحبه ، بل هناك رأي يصدر عن شخصية قوية فيكون هو الحق ، ورأي يصدر عن شخصية ضعيفة فيكون هو الباطل ، بيني وبينك زوجها صالح يحسدها على ذلك ويتمنى لو كـان مثلها ، وهذا — في رأيي — هو ضعفه الحقيقي .. بل هو يخشى — ولا يريد — أن يكون لنقده المستمر لتصرفات زوجته أثره عليها فتصبح مثله، والا فكيف يهمل تحصيل أجره ما لم تهتم هي بتحصيلـه لـه ، وكيف ينصرف الى « ضرورات » حياته ما لم تنصرف هي الى « تفاهاتهـا » ؟ ولقد استوعب هذا جيدا من تجربة سابقة له ، فصالح يعلم ان القلق مـن طبيعته ، ولعل اكبر قلقه ان الدنيا ستنهد اذا لم يسر كل شيء فيها بنظام ودقة ، بينما الهدوء — بل البرود — من طبيعة زوجته ، أقصد أنه كـان من طبيعتها . فكان كلما انتابته الاوهام سخرت منه ، ولا اقول طمأنته . وكان هذا مما يثيره بالاضافة الى ما يقلقه ، فيتهمها بانهـا لا تشاركـه همومه ، بل تضطره أحيانا الى محاولة اخفاء وساوسه عنها . ثم يثبـت أن وسوسته لم تكن الا وهما أكل من اعصابه وان طمأنينتهـا تقوم على احساس اكثر واقعية . وهكذا تعود كلما اجتاحته نوبة قلق ان ينظر في

عيني زوجته ، فاذا تلمس فيهما عدم الاكتراث ادرك أن وساوسه ليست الا مجرد توتر نفسي ولا علاقة لها بالواقع • غير أنه بدأ يلاحظ أخيرا ــ وبمزيد من الأسف ــ أن عدوى قلقه آخذت تتسرب شيئا فشيئا الى زوجته حتى اصبح يقلقها ما يقلقه ، مما جعله يفقد ــ بل يفقدان معا ــ قدرة التمييز بين الوهم والواقع • من يومها ادرك انه لا يمكن أن يستمر أسلوب حياته ما لم تستمر هي أيضا في أسلوب حياتها • ولئن كان في لحظات ثورته عليها يتمنى موتها أو موته ، فانه في ساعات صفائه يزعجه هذا الخاطر أيما ازعاج ، فهما كأي زوجين ناجحين ــ ولا أقول سعيدين ــ كفردتي الحذاء يختلفان ويتكاملان • لا تؤاخذني في هذا التشبيه ، هل تعرف انه اذا لم يتحقق هذا الاختلاف المتكامل بين الزوجين فانه يحدث أحد أمرين : اما ان يقع الفراق والطلاق ، واما أن يحدث العكس فيبهت الزوجان احدهما على الآخر بحيث يتقاربان لا في الطباع والعادات فقط بل في الشكل ايضا ، نعم نعم صدقني فان وجه كل منهما بل ربما معالم جسمه كذلك تبهت على الآخر ، هل تراني استطردت كعادتي •• المهم أنه قبل الامتحان بيوم شوهد صالح وهو يصطحب الاطفال الستة ويعبر بهم النيل الى المركز حيث أشرف على تدبير مكان يبيتون فيه خلال يومي الامتحان واستعاد معهم ليلتها مواد اليوم التالي حتى تثاءب الاطفال فتثاءب معهم • وفي الصباح صحبهم الى لجنة الامتحان • يطمئنهم ويبث الثقة في نفوسهم ، وبين كل مادة واخرى يراجع معهم موضوعات المادة التالية • وفي اليوم التالي فعل ما فعله في اليوم السابق حتى اذا ما انتهى الامتحان استعاد اجاباتهم ليطمئن الى نتيجتهم ، فلما قفل معهم عائدا الى القرية كان مطمئنا الى نتيجة تلاميذه متنبئا لأهلهم بالنجاح جميعا • فلما أعلنت النتيجة صدق ما تنبأ به بل فاقت النتيجة تنبؤاته ، كان أحد الاطفال الستة اول منطقته التعليمية كلها ، تصور ••• بذلك كانت مدرسة قريتنا أولى مدارس المنطقة : نتيجتها مائة في المائة وأحد طلبتها الاول على

تلاميذ المنطقة كلها • وذهب صالح الى تلاميذه يهنئهم فيهنئونه ويقدمون له الشربات ، أما زوجته فلا تقنع الا بما هو أكثر من الشربات •

وفي مثل هذا اليوم من الاسبوع الماضي احتفلت المحافظة بعيدها السنوي ، قدمت فيه المنطقة التعليمية جوائز لهيئات التدريس بمدارسها المنفوفة وفي مقدمتها طبعا مدرستنا ، دعي ناظر المدرسة ومدرسو السنة السادسة الابتدائية ومدرساتها ، وحصل كل مدرس ومدرسة على مكافأة قدرها خمسة جنيهات ، أما الناظر فمنح شهادة تقدير •

وحاول صالح أن يحضر الحفل فمنعوه بدعوى أنه لا يحمل بطاقة دعوة ، كان يريد استغلال المناسبة لمقابلة المسئولين بالمحافظة ويجدد محاولة تعيينه بالمدرسة ، أما هم فخشوا أن يزل لسانه ويفضحهم •• آه •• نسيت أن أخبرك يا سيدي أن الاهالي كانوا قد قدموا شكاوي — كعادتهم — في ناظر المدرسة ومدرسيها ، وكان المحققون قد سبق أن رأوا حفظ هذه الشكاوي • أما الآن فقد تأكد أنها شكاوى كيدية وربما وجب معاقبة مقدميها • كما بدأ التفكير في افتتاح فصل اعدادي ولولا ؛لة الاطفال لنفذ الاقتراح • ولقد أبى ناظر المدرسة الا أن يعلق شهادة التقدير على الحائط خلفه في غرفة مـ •• كتـ •• به •• بالـ •• مد •• رسة •

تباعدت كلمات الرجل بعد أن كانت تتزاحم على شفتيه تزاحم العرق على جبينه وعلى شعيرات شاربه ، ثم انخفضت حتى تلاشت •• عجلات القطار هدأت من جديد كأنما توشك أن تقف على [illegible] مقبلة •• يبدو أنه عطل في الطريق • وأن هناك من يصلح العطل ، كانت هناك اضواء كهربية قوية فبدأ من خلالها العمال وقد وقفوا في شبه صف منتظم تعلو اصواتهم من حين لآخر بغناء غير واضح ليهووا بمطارقهم على قضبان الحديد •• حتى عبرنا منطقة العطل ليستأنف القطار سرعته

ويستأنف الرجل حديثه :

ـ لا تصدق أنه يمكن ان تكون الجلدة جيدة في معمل لأبحاث الفضاء ، فاسدة في مخزن للمكانس والجرادل ، فلكي يصل علماء دولة الى القمر أو الى الزهرة او المريخ لا بد أن يكون هناك موظفون قابعون في أحد المخازن على بعد مئات الاميال من العاصمة لا تنقص عهدتهم ـ عن اهمال أو سرقة ـ مكنسة او جردل ، فهؤلاء اخوة آولئك واباؤهم وأبناؤهم •

سألته : ومتى يتحقق ذلك :

فاجأني بقوله : عندما نكف عن اخراج افرازاتنا ـ علنا وفي الاماكن العامة ـ من فتحاتنا بجميع أنواعها • أيدهشك هذا القول لأنه يصدر عن ريفي مثلي أم لانه يربط مرة أخرى بين أمرين تبدو العلاقة بينهما بعيدة في ظاهرها وثيقة في حقيقتها ؟ بل دعني أقول لك ما يبدو أغرب من ذلك : في رأيي انه يمكن التعرف على المستوى الحضاري لأية دولة من مستوى نظافة مراحيضها العامة •• تأمل مراحيضنا العامة تدرك مستوانا الحضاري •

قلت مبتسما : وهل هذه أيضا احدى نظرياتك ؟

أجاب ضاحكا :

ـ ولم لا ، فلنتفق على تسميتها « النظرية الكلية » أي أن الدولة كل لا يتجزأ ، لا يمكن أن يختل تصرف دون أن يعني ذلك اختلال بقية التصرفات • .ما رأيك في أن نطلق عليها اسم « النظرية الوبائية » فالخلل هنا كالوباء سريع العدوى سريع الانتشار ، فضلا عن أن هذا الاسم يحمل صفة الشر الذي يدل عليه ، بينما تسميتها « النظرية الكلية » لا يحمل الا صفة محايدة •

ثم كف عن الكلام ـ من تلقاء نفسه لاول مرة ـ وبدأ أنه يفكر باحثا عن شيء حتى اذا ما وجده صاح فجأة :

ـ لكن لا ، الاسم الاول أفضل لأن حياده يجعل النظرية تنطبق في حالتي انتشار الجلدة الفاسدة والجلـدة الجيدة أيضا • لاحظ أنني ادفق في اختيار عناوين نظرياتي •

تدخل الطالب المجاور لأول وآخر مـرة في الحديث قائلا : لعل المسألة مسألة زمن ، لا بد من الوقت ليقتنع الناس حتى بما في صالحهم ، لا بد من الوقت حتى تظهر النتيجة •

النتيجـة :

ـ النتيجة يا ابني ألا يكون التعليم مجرد تلقين معلومات ، الطفل يتعلم من تصرفات أستاذه أكثر مما يتعلم من اقواله • هذا الكلام لا بد أننا نعرفه من قبل جميعا • فاذا كانت الجلدة فاسدة في المدرسة أصاب الرشح الاجيال التالية ، بل سارت الامور الى أسوأ ، ولن يصبح الزمن يا ابني معنا بل ضدنا ، ننقرض كما انقرض من قبلنا الهنود الحمر ، ومن قبل قبلنا قوم عاد وثمود • لقد قرأت في كل العلوم ، لكن هل تعـرف ما أهمها ؛ انهالتاريخ ، يجوز أنـك تخالفنـي ، لكن هذا هو ما انتهيت اليه من رأى ، لو أننا وعيناه جيدا لتجنبنـا كثيرا ممـا نقـع فيـه من أخطاء • صحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه ، لكن صحيح أيضا أنـه يكررها • من هنا تأتي أهميته انه يكرر نفسه في الخطوط العريضة العامة ولا يكررها في التفاصيل والجزئيات • ومن عنصر التكرار الكـامن في التاريخ تجيء الاستفادة منه ، ومن عنصر عدم التكرار يمكـن تجنـب النتائج بتجنب المقدمات • معظم من عملوا في وحدة قريتنا نشأوا بلا شك في مدارس من نوع المدرسة في قريتنا • المدرسة التي تعلمت فيها أثنـاء طفولتي لم تكن تعرف التهاون ، المدرسون لا يتهاونون مـع انفسهم ولا مـع طلبتهم •

قاطعته ضاحكـا :

ـ ولعل السبب أنهم لا يحاولون تطبيق نظريتك في الخير المطلق ،

فهناك دائما طرف يحاول ان يستفيد على حساب الطرف الآخر ، لا يدري انه يدمر نفسه من خلال تدميره الآخرين •

تهلل وجه الرجل قائلا :

ــ لعلك ادركت الآن نظرية الجلدة الفاسدة يا سيدي ، المهم ••

انطفأت مصابيح عربتنا •• هل تسمعني ؟ بعض الناس يكون افضل اصغاء اذا تعطلت حواسه الاخرى وركز انتباهه في آذنيه •• أنا لا أسمع جيدا ان لم أر محدثي !•• حتى الراديو لا أسمعه جيدا ان لم اره أمامي • السمع عندي مرتبط بالبصر •• يبدو أننا على مشارف القاهرة• أضواؤها البعيدة بدأت تعلن عنها في عتمة الليل، وصوت الرجل يعلو واضحا متميزا :

ــ انا الآن مسافر لمقابلة المسئولين في القاهرة لتعييني بالمدرسة ، انهم تلاميذي ، أصبحوا الآن من كبار الموظفين ، أحدهم في وزارة التربية بالذات ، توفي والده منذ أكثر من عشر سنوات ، لم يعد يزور قريتنا ، عمه جارنا ، معي خطاب منه ، خطاب عادي فيه تحية وسلام ، قلت أوصله باليد بدلا من ارساله بالبريد ، ليس خطاب توصية لا لا ، انه لا شك ، يذكرني ، التلميذ يذكر استاذه دائما ، أما الاستاذ ••• تقول ان اسمك أيضا صالح ، هذا تشابه غريب ، أقول تشابه ولا أقول صدفه ، فهو ــ بلا شك ــ تدبير مقصود ممن أوجدني وأوجدك •

عاد النور الى العربة ، وعندما لمحني أتفرس في قدميه كأنما لاعرف أين ساقه الصناعية علق قائلا :

ــ قبلها لم أكن أخشى شيئا ، أما منذ بترت هذه ، فقد بت أخاف شيئين : البحر والنساء •

سألته مداعبا لابدد ما أصابني من دهشة ووجوم : لم تكن تخشى كل النساء ؟

فهم ما أرمي اليه فقال : تقصد زوجتي ، هذه شذوذ عن القاعدة ، والخوف هنـا من نوع آخر يا سيدي ، تصور لم أكن افهم معنى قولهم، ان المرأة مصدر الهام حتى ألهمتني زوجتـي نظريتي عن قوة الشخصية وضعفها .

وضحك صالح ضحكته المجلجلة من أعماق قلبه .

وعندما بدأت أنفض عني غبار السفر ، وأعد حقائبي تأهبا لمغادرة القطار في محطة الجيزة قال لي ضاحكا : لم أحدثك بعد يا استاذ صالح عن المشرف الاجتماعي والمرشد الزراعي .

أجبته بدوري ضاحكا : عندما تتقابل في القطار مرة أخرى ...

فلما أصبحت علـى الرصيف ودعتـه مـن النافذة فودعني بعينيه المدهوشتين ، حتى اذا ما اختفى القطار تماما ، كان دوي العجلات ما يزال يطن في أذني : تصور .. المهم ، تصور .. المهم ، المهم .. تصـور .. حتى تلاشى في ضجة المدينة وزحامها .

ديسمبر ١٩٦٦

● ●

اللحم والسكين

دقت أجراس الكنيسة دقاتها الحزينات المتفرقات ، كأنها خطـوات مجهدات . وامتلأ بهو المكان بعشرات الرجال والنساء . كـان الوجوم يسود الرجال ، أما النساء فكن متشحات بالسواد دامعات .. مـا بـين قريبات وجارات وصديقات منذ عشرات الاعوام ، بينما كـان الأرغـن يعزف لحنه الجنائزي .

وكان الجوحارا ، وتكاثف الانفاس قد ضاعف من حرارة الجو حتى سال العرق على كثير من الوجوه ، ورائحة الزحمة البشرية تملأ الأنوف ، بينما كانت قطع الزجاج الملون بالنوافذ الحقيقية والوهمية وصور الملائكة والقديسين في قبة الكنيسة وعلى جدرانها قد ضاعفت من رهبة المكـان وقداسته ، وظل الموت يمر به .

كانت الفقيدة في التاسعة والأربعين ، مريضة منذ سنوات بالضغط والسكر .. ولما كانت قد عاشت بضع سنين بهذه الامراض ، فقد توقع لها كل معارفها انه يمكن لها أن تعيش عشرات السنوات الاخريات . لكن حدث فجأة ــ ومنذ أربعة أيام ــ أن كانت تجلس على الكنبة في بهـو بيتها ، عندما وقعت مغشيا عليها . وكانت تسكن شقة بالدور الثالث من عمارة صغيرة بحي الدقي مكونة من أربعة أدوار بكل دور شقتان ، وفي الحال أسرعت خادمتها فرحانة باستدعاء الجارة التي تسكن الشقة المقابلة

ريثما تبلغ ابنيها الوحيدين ••• أبلغت ميلاد تليفونيا ، فهو يعمل طبيبا بيطريا بالمدينة نفسها ، وتطوع أحد الجيران ــ وغالبا كان زوج الجارة ــ تابرق لشفيق حيث يشرف على أرض يزرعها باحدى قرى المنيا •

وسرعان ما أقبل ميلاد ومعه زوجه وأولاده وبناته •• وقد ظن أول الامر أن أمه ماتت، وهمت زوجـه ــ وهي أبنة أخيها أيضا ــ بالبكـاء والصياح ، ثم تبين ان الحياة ما تزال تدب فيها ، فعدلت عما همت بـه • وحاول ميلاد ان يقوم بالاسعافات الاولية لامه ؛ فلما فشل أسرع مضطربا يستدعي اخصائيا وهو يطمئن نفسه : لعلها حالة اغماء بسبب ازديـاد السكر في دمها •

أما شفيق فقد وصل وحده في منتصف الليل ، وبمجرد مجيئه اندفع نحو أمه يقبلها ، عسى أن توقظها قبلاته • وقد ترك أخوه له الغرفة عنـد دخوله ، فاتجه نحو فرحانه يطلب منها تفاصيل ما وقع • وفي اليوم التالي أرسل يستدعي زوجه وأولاده •

وهكذا نقلت السيدة أم ميلاد الى المستشفى ، حيث أمضت هناك أربعة أيام ، لم تنطق خلالها بكلمة ، وان كان يبدو أنها تعاني عذابا أليما، لعلهمجرد وهم بدا لأحبائها والمشفقين من موتها، ولعلها كانتتريد أنتفضي لابنيها بشيء من نزاعهما قبل أن تسلم الروح ، ولعله كان فعلا ألما بدنيا، وكانت أحيانا ما تفتح فمها ، فيبدو كأنما هي تلهث من الظمأ فيبللـون طرف لسانها • وكلما حركت جفنا او اصبعا ظنوا ان الحياة دبت مـن جديد ، فيدب فيهم بدورهم أمل عريض ، ويهل الجميع نحوها عساهـم يتلقون همسة أو اشارة وهم على أهبة لتأويلها واذاعتها ، غير أن الجفن أو الاصبع ما يلبث أن يرتخي فيخبو الأمل ، حتى ساءت حالتها وارتفعت حرارتها أول من أمس ••• ويبدو انهـا ظلـت تعاني حالة النزع ثلاث ساعات ، من منتصف نهار أمس حتى الثالثة بعد الظهر ، عندما وقـع زلزال خفيف استمر ثانيتين ، قالت عنه صحف اليوم التالي ان مركزه يقع

على بعد سبعمائة وخمسين ميلا الى الشمال الشرقي للقاهرة • وقد بـدا ساعتها كأنما الفقيدة تريد أن تصرخ ، غير أنها ما لبثت أن نكست رأسها وأسلمت الروح •

واتجهت ابصار المعزين الى النعش ، يدخل من باب الكنيسة محمولا على اكتاف شباب الاسرة ، وقد احمرت عيونهم وتورمت أجفانهم • وكأن الجهد يبدو عليهم كأنما الجثة زادت ثقلا بعدما غادرتها الروح • وظل النعش يتحرك على نغم الأرغن الحزين . حتى وصل به حاملوه الى مذبح الكنيسة حيث كان القس واقفا في استقباله • وارتفعت نهنهات من ابنها شفيق بينما سالت دموع ميلاد على خديه في غزارة وصمت •

كان ميلاد وشفيق أخويـن ، وحتى ستة أعـوام مضت كانا أيضا صديقين ، فعمرهما متقارب ••• ميلاد أكبر من شفيق بسنتين ، وشكلهما متقارب ، ما تكاد ترى أحدهما حتى تعرف أنه لا بـد وأن يكـون أخا الآخر ، وفي أول معرفتك بهما كان يختلط عليك الأمر ، فلا تعرف أيهما ميلاد وأيهما شفيق ، نفس الوجه الاسمر والانف المستطيل الـى الامام قليلا ، والجسم المتوسط والشعر الخشن الاسود الغزير •

وفي طفولتهما كان الوالد ـ بوجه خاص ـ يطالب ميلاد بأن يكون أكثر نضجا وتساهلا وتحكما في أعصابه باعتباره الاخ الاكبر ، ولكـن الطفل كان لا يحس الا أن أخاه يتمتع ـ بحكم صغر السن ، الـذي لا يريد أن يدركه ـ بما لا يتمتع هو به ، فهو منافسه الخطير في طعـامه ولعبه وفي اهتمام والديه الذي كان يستأثر به وحده • وكثيرا ما تسلل اليه خفية ليعضه أو يقرصه أو يخطف ما بيديه ليأكله أو يحطمه • ويسمع امه أو أبوه صرخة أخيه الفزعة فيهرول ليكشف سبب الضجة ، فان كانت امه صرخت فيه حتى ليحس أنها ستحرمه حنانها الى الأبد فيأتيها باكيـا .إلبا منها الصفح ، واذا كان أبوه ضربه حتى يعد ـ وكثيرا ما وعـد ـ بألا يؤذي أخاه مرة اخرى •

وميلاد ما يزال يذكر أنه ضرب أخاه مرة ـ في هذه السن المبكرة ـ بمفتاح على رأسه ، وكان نائما مريضا قد أرهقته حرارة الحمى فاستيقظ فزعا باكيا ، وليلتها ضربه أبوه علقة ما يزال يذكر بسببها هذا الحادث .

وكبر الاخوان قليلا ، وأدرك ميلاد الدور الذي يطلب منه أبوه أن يؤديه ، وحاول جاهدا أن يرضيهما حتى ينسجم مع بيئته الصغيرة التي يعيش فيها ، فتعلم كيف يعيش في سلام مع أخيه ، وكيف يقوم بدور الأخ الاكبر على خير وجه ، كما لاحظ أنهم لم يعودوا يعاملون شفيق بنفس التدليل الذي كانوا يعاملونه به في صغره ، مما خفف ما كان يعانيه من ضغط .

وذهب الاخوان معا الى المدرسة الابتدائية فالثانوية ، ولقد حدث يوما ـ أثناء الدراسة الثانوية ـ أن ذهبا في رحلة مدرسية . وكان ميلاد يعد نفسه مسئولا عن أخيه ، ويبدو أن أخاه اختلف مع بعض زملائه فهموا بضربه بعيدا عن أعين المشرف ، فتصدى لهم ميلاد ليتلقى الركل والصفع بدلا من أخيه ، لكنه استطاع في النهاية أن يتغلب عليهم ويلقنهم درسا لا ينسونه ، ولعل ذلك راجع الى انهم كانوا في عمر أخيه الاصغر أكثر مما يرجع الى قوة بدنية يمتاز بها ميلاد . الا أنه بعد أن نفض غبار المعركة عن ملابسه واختلى بأخيه عنفه على اثارته المشاكل وما عرضه له من أذى وهدده بابلاغ أبيه .

وكان الوالدان يحرصان في تلك السن على أن يبثا فيهما الروح الدينية ، فكانت الأم بقدوتها تبث فيهما الدين من ناحيته العاطفية ؛ والاب يبثه فيهما من ناحيته الفكرية بما يثيره من مناقشات وما يقرأه لهما كل صباح من فصول الكتاب المقدس .

ثم افترقا في مرحلة الدراسة الجامعية ، فدرس ميلاد الطب البيطري ، ودرس شفيق في كلية الزراعة . ولم تكن دراسة ميلاد عن اختيار ، كان يريد أن يكون طبيبا يعالج الآدميين ، لكن مجموع

درجاته لم يصل به الا الى مرتبة معالجة الحيوان • أما شفيق فدخل كلية الزراعة عن رغبة ، وكان مجموع درجاته يسمح له بدخول كليات أخرى، غير أنه آثر هذه الدراسة، فقد ظلت الصداقة قوية بين الشقيقين، وكان شفيق لا يجد ما يمنعه من ارتداء قميص أخيه او بدلته اذا وجد ثيابه غير معدة للارتداء ، وكان هذا مجالا جديدا لخلط الناس بينهما في تلك الايام • أما ميلاد ــ وهو أكثر دقة وتنظيما ــ فكان يغضب عندما يكتشف ذلك ، لكنه غضب ما يلبث أن ينتهي بضحكات الاخوين •

كذلك كانا يتبادلان أسرارهما ••• خطاياهما الصغيره ومغامراتهما العاطفية، وعندما فكرا في الزواج لم تكن المرأة سببا في اية فرقة بينهما ، بل على العكس من ذلك ، اكدت أخوتهما وصداقتهما . فعندما فكر ميلاد ان يخطب ابنة خاله صوفي فكر شفيق أن يخطب اختها عايده بعده أسابيع • وبعدها بأشهر تزوج الاخوان من الاختين في يوم واحد ، وقام بمراسيم الزواج نفس القس في نفس الكنيسة التي يودعان فيها أمهما الآن •

وكان القس يقرأ الآن آيات من الكتاب المقدس ويقول : عريانا خرجت من بطن أمي عريانا أعود الى هناك • الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا • بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض التي أخذت منها ، لانك تراب والى تراب تعود •

ولقد حدث منذ ست سنوات ان جاء جمهور مماثل الى هذا المكان نفسه ليشيع المرحوم والدهما ، وكان قد مات بعد مرض قصير ، ولما يمض على زواج ابنيه شهور • وبعدها بأيام دب خلاف بين الشقيقين • بدأ حول الميراث ، ولم يكن نصيب كل من الابنين موضع النزاع بل كان سبب النزاع هو نصيب شفيق نظير اشرافه على زراعة الارض • وكان يقوم بهذا العمل في حياة والده ومع والده • وكان ميلاد يكتفي بدخله الطيب كطبيب بيطري • فهو موظف حكومي في الصباح يكشف على

مئات البهائم قبل الذبح كل يوم ، أما بعد الظهر فقد افتتح عيادة في حي مترف يأتيه اهله بكلابهم وقططهم ونسانيسهم وعصافيرهم الرقيقة الملونة ليشفيها ويشفي أصحابها مما الم بهم من كرب •

ومنذ ستة أعوام مات والده ، فوجد ان من حقه أن يأخذ نصيبه مما تغله الارض ، وكان شفيق يريد نصيبا أكبر ، فهي مصدر رزقه • ولم يكن ميلاد يعارض في المبدأ ••• كانت التفاصيل هي موضع النزاع•

في ذلك الوقت كان شكلاهما قد أخذا يختلفان ، ربما بسبب زواجهما وتقدم السن ، وربما بسبب ما حدث بينهما من شقاق • فالصلع اخذ يزحف على مقدمة رأس ميلاد ، كما انه أصبح أكثر نحافة مثل المرحوم أبيه ووضع نظارات على عينيه فبدا مظهره أكثر وقارا • أما شفيق فقد أنبت له شاربا خفيفا ، ومال نحو السمنة كالمرحومة جدته لامه فبدا أقصر من أخيه كما أصبح كثير التدخين بحيث أسودت أسنانه وما بين سبابة يده اليمنى وأوسطها • حتى طباعهما اختلفت فبدا ميلاد أكثر برودا وأقل انفعالا ، بينما بدا شفيق عاطفيا خياليا سريع الثورة سريع الهدوء •

وهكذا تسلل الشقاق الى قلب الشقيقين ••• وكان محصورا في مسألة الارض ، ثم أخذ يتسع حتى شمل عدم استلطاف كل منهما للاخر وما ينتمي الى هذا الآخر من زوج وأبناء وتصرفات •

وكان شفيق قد تعود أن يزور أمه مع أسرته عند انتهاء كل موسم فيأتي اليها من الصعيد محملا بالطيور والبيض والجبن والزبد ـ الذي تحوله الى سمن بمساعدة زوجه ـ وكميات وافرة من خبز الصعيد • وتستمر الزيارة اسبوعين او ثلاثة • وعند انتهائها يدعوها لتمضي بضعة ايام عنده « لتغيير الهواء ولان جو الريف صحي » على حد تعبيره •

اما ميلاد فكانت زياراته أكثر وأقصر ، لا يدخل عليها الا محملا بالفاكهة واللحم أو السمك • وفي كل مناسبة يقدم لها هدية مناسبة •

ومع ذلك اصبحت الام تخشى هذه الزيارات بل وتكرهها ، فقد كان لا يحلو لابنيها النزاع ولا تتاح لهما فرصة الا كلما جمعهما بيت المرحوم والدهما وأمام والدتهما :

ــ فلت اريد ايراد المطحن و ١٥ ٪ من صافي ثمن المحصول •

ــ غير نصيبك طبعا •

ــ طبعا غير نصيبي •

ــ يا سلام ••• هل تسعين ، أهذا ما انتهينا اليه بعد جلسة أمس؟

ــ الى متى تعذبانني بنزاعكما ، كانت أسرتنا مثلا فأصبحت أمثولة ••

وكانت جلسة أمس قد طالت حتى الواحدة بعد منتصف الليل ، حضرها أقرباء وأصدقاء حاولوا عبثا تسوية النزاع ، بينما أرهقت قوى الأم وأعصابها لما تبذله من مجهود جسمي ونفسي • كانت تأمل أن يظل النزاع محصورا داخل اسرتها الصغيرة ، لكن سرعان ما تحول الى فضيحة علنية يتدخل فيها الاغراب ، ويرون من حقهم ان يدلوا فيها بآرائهم •

ويعلو صوت شفيق بعض الشيء :

ــ جلسة أمس لم يكن فيها الا اصدقاؤك (فأصدقاؤه في الريف) وطبعا كانوا الى جانبك •

ــ اذن ما الذي تريده ؟

ــ ما دمت ترفض نصيبي نظير الاشراف على الارض ، اذن أجر لي نصيبك أو بعه •

ــ حتى تفرض علي الايجار أو الثمن الذي تريده ، سأؤجرها أو أبيعها لمن أشاء ، بالثمن الذي أشاء •

ــ اسمع •• هذه الارض أرض أبي ، ولن أسمح لمخلوق غيري أن يؤجرها أو يشتريها •

ـ هل تهدد باستخدام القوة ؟
ـ بل سأستخدم القوة .
ـ هل يعجبك هذا الكلام يا أمي ؟
ـ لا يعجبني كلامك ولا كلامه ..

كان شفيق يدهش لأجوبته الرصاصية اول الامر وهو يخاطب أخاه الاكبر بهذا اللون من التحدي حتى لكأنها لا تخرج من فمه ، غير انه ما لبث أن اعتاد هذه المواقف ، وأشاع في قرينه ان كل من يجرؤ على استئجار أو شراء نصيب أخيه فلن يستمتع بصفقته الا في الآخرة . وكان الناس أحكم من أن يتدخلوا في نزاع بين شقيقين فآثروا السلامة ، ولم يجد ميلاد أحدا يجرؤ على ايجار أرضه أو شرائها .

وتعلو الاصوات حتى تبلغ مسامع الجيران ..

ـ اذن سألجأ الى القضاء .
ـ بل الى جهنم اذا أردت .
ـ أنت طويل اللسان .
ـ اخرس ... أنت ما عدت أخي ..
ـ سأقتلك .. سأضربك بالرصاص ..
ـ أحب أن أرى شجاعتك ..

ويفيقان على دموع الام وهي تتساقط ، فيخجل شفيق ، ويصمت ميلاد .. وينقطع الصياح فجأة .. ويتساءل الجيران اذا لم تكن المعركة قد تحولت الى تشابك بالايدي .. والواقع أن كلا منهما كان يبذل جهدا عنيفا في سبيل كبح جماح رغبته في تحطيم الاخر . غير أنه حدث ذات مرة تطور جديد ، فقد صاح شفيق كعادته :

ـ سأقتلك .. سأضربك بالرصاص ..
ـ يا آكل الاموال .. أنت أجبن من ان تقتل دجاجة ..
ـ أحسن لك ألا تثيرني .. لا تتحداني ..

ـ هاها .. قديسة ... العب غيرها ..

ـ انت اذن تجبرني .. تضطرني ..

ـ ها ها ها ...

ثم دوى صوت طلق ناري .

كان شفيق يريد ولا يريد ان يقتل أخاه ، لهذا فانه أصابه ولم يقتله .. وكان على مسافة قريبة منه بحيث يستطيع ان يصيبه في مقتل اذا اراد ، والواقع ان شفيق لم يكن جبانا كما عيره أخوه ، لكنه كان ـ وهو في قمة غضبه ـ يحب أخاه ويحب أمه ، ولا يريد أن يتعذب ويعذب امه بقتل أخيه . وكثيرا ما كان يود لو عاد الى أخيه وعاد اليه أخوه ، ولكنه كلما انتابه هذا الاحساس قاومه ، فأظهر عداء أكثر وكراهية أكثر ، كأنما يحسب هذه العواطف مظهرا من مظاهر التراجع والضعف يجب ان يتغلب عليها ، ومع هذا فهي سرعان ما تطفو من جديد ، فيشعر كأنه منفي من أرضه ، محروم من بعضه ، يتمنى لو لم يكن ميلاد أخاه ، اذن لقضى عليه .. ليس بهذه الطريقة العلنية التي تحمل في بذورها رغبة في أن يقبض المجتمع عليه ويقتص فورا منه ، بل يدبر للقضاء عليه خطة محكمة متقنة تحتق هدفه ولا تكشف عنه .. فقتل الغريب جريمة يحاسبه المجتمع عليها اذا اكتشفها ، أما قتل أخيه فهو خطيئة تحاسبه نفسه عليها حتى وان لم يكتشفه المجتمع .

لهذا أصابت الرصاصة كتف أخيه ومزقت قطعة منه ، ووقع ميلاد على الارض وهو يضع يده اليمنى على كتفه اليسرى كأنما ليمنع تدفق الدم والالم ، بينما اندفعت الام تصرخ وقد حسبت انها فقدت ابنيها فأصبحت ام قاتل وقتيل . أما فرحانة فكانت اعلى صوتا وصراخا بحيث تجمهر الجيران على الشقة ثم ما لبثوا أن اقتحموا بابها .

وبسبب دموع الام وتوسلاتها وعذاباتها ، وصف الحادث في التحقيق بطريقة أخرى ... فقد انطلقت الرصاصة خطأ من شفيق وهو

ينظف مسدسه فأصابت أخاه .. وفي اليوم التالي ظهرت أعراض المرض على الأم .. فلما ذهبت الى الطبيب اعلن أنها مصابة بارتفاع في ضغط الدم .

وهكذا عرفت الامراض طريقها الى الام المعذبة . قال لها ابنها الطبيب : تجنبي الانفعالات يا أمي حتى لا يرتفع الضغط ، ثم ما يلبث بدوره ان يكون سببا لانفعالها . ثم أصيبت بالسكر فأصبحت في حاجة أكثر الى هدوء لا وجود له . ثم احتل البياض شعر رأسها .

كانت تقول ان الشيطان انتصر على السلام الذي كان يسود أسرتها، وأحست انها لم تفقد زوجها فحسب ، بل فقدت الوحدة التي كانت تجمع شمل أسرتها .. لجأت الى زوجتي ابنيها صوفي وعايدة ، فهما أختان وهما بنات أخيها ، فما راعها الا انها وجدت كل زوجة تتعصب لزوجها، وكانت الخصومة قد بلغت بين الشقيقين حدا بحيث اذا التقيا في الطريق تجنب كل منهما الآخر وكأنه لا يعرفه ، وبحيث حرض كل منهما زوجه وأولاده على تجنب الاخرى واولادها . وهكذا كان على السيدة أم ميلاد أن تشرب من كأس الخل والمر وهي ترى أعضاء جسدها يثور احدها على الآخر .

وكانت أحيانا ما تحاول أن تجس النبض لتتبين مدى استعداد أحدهما للصفح او التضحية ، فتبدأ حديثها كأنما بطريقة غير مباشرة :

ــ اخوك لم يرسل لي خطابا منذ زمن بعيد ، ألا تعرف أخباره ؟

ــ وهل أنا حارس له ؟

ــ هذا الكلام عيب .. المسيح قال أحبوا أعداءكم، وهذا أخوك.

ــ وهل قال المسيح أحبوا الشياطين ؟

ــ بل الشيطان هو الذي أفسد ما بينكما .. اسمع : انك لا تحبني

ــ بل أحبك .. أنت تعرفين هذا ...

ــ قلت أنك لا تحبني .. أنت وأخوك تعذبانني ، تعذبانني

وتدفعانني الى القبر •

ــ لا تتحدثي عن القبر •• أنت ما تزالين صغيرة ••

ــ لكنكما شيبتماني ••

ثم تغير نغمة صوتها وهي تحاول التأثير عليه ، وان كانت تحس أن كلماتها تنزلق عليه فلا تنفذ الى قلبه :

ــ ليست لدي الا امنية واحدة ، أن أراكمــا تصطلحان قبــل أن امــوت •

لكنها ماتت ، وها هي ذي في الصندوق الخشبي الثقيل يتحــرك خارجا من الكنيسة وقد عاد الأرغن يعزف لحنــه الجنائــزي وجمهور المعزين يندفع خارجا من هذا الجو المقبض الحار ••• لتهب في وجوههم سخونة تندلع من الارض والسماء كــأنما الشمس تريد أن تنفــذ الى العظــام •

وكانت تقف في الخارج عربة ذات ستة جياد غطيت ظهورها بأقمشة بنية داكنة لتبدو أكثر وقارا فوقتها لفحات الشمس النارية ، والى جانبها ثمانية سائسين كأنما كانوا خدما في قصور المماليك ، فلما انقرض أسيادهم أقبلوا يعملون خدما لملاك الموت• وسار الموكب الى المقبرة ــوهي غير بعيدة ــ في مقدمتهم ميلاد يسير في خطوات متئدة وعلى بعد قليل منــه سار شفيق مستندا الى ذراع صديق له •

كان ميلاد يفكر في نزاعه مع أخيه ••• وعظة القس بقاياها فــي نفسه •• ورغبة أمه أن يصطلحا قبل ان تموت •• ماذا يقول عنهما الناس الآن •• لا بد أنهم يتوقعون شيئا ••• وكلمات أبيه يوم زواجه هــو وأخوه : أنتما اليوم أصدقائي واخوتي ••• هل يتفاهم مع أخيه بشأن تكاليف الجنازة ؟

أما شفيق فكان أكثر انفعالا واكثر انهيارا ، يحس انحلالا في جميع قواه الجسدية والفكرية ، وقد ألحت عليه صورة آخر مرة زار فيها أمه

قبل مرضها الاخير ••• كانت الخادم قد فتحت له وأبلغته ان امه في غرفة نومها ، وكان الباب مغلقا وان سمع بداخله صوتا كأن شخصا يحادث آخر ، فلما أنصت تبين أن أمه تصلي وهي تبكي تطلب من الله ان يهدي ابنيها ويوفق بينهما : ويومها تأثر وتعهد امام نفسه ان يتفاهم مع أخيه في أول لقاء له ، لكن هذا اللقاء لم يتم الا امام جسد أمه الموشك على الموت • لماذا لم يتعهد بذلك امام امه يومها أو يرسل خطابا بهذا المعنى الى أخيه ؟ •• لم يخطر بباله أنها أقرب ما تكون الى الموت •

ومن أعلى العربة أطل ملاكان وديعان خاشعان لهما هيئة طفلين لكل منهما جناحان ، وميلاد ما يزال يسير في خطواته المتئدة ، وشفيق قد أصبح اكثر اقترابا منه وقد انفصل عن صديقه واسترخت ذراعه الى جانبه •

وفي منتصف الليل كان آخر المعزين قد غادر السرادق ، فبدا فسيحا مهجورا كئيبا ساطعا بعشرات المصابيح ، تناثرت على أرضه أعقاب السجائر وآثار الاقدام • وكان ميلاد وشفيق وأسرتاهما قد صعدوا الى شقة المرحومة والدتهما • وكان على شفيق أن يبقى أسبوعا على الاقل بالقاهرة مع أسرته قبل أن يعود الى ارضه بالمنيا • أما ميلاد فلم يكن له في مثل هذه الساعة المتأخرة أن يعود الى منزله ، لا سيما وأن اطفاله قد استغرقوا في سبات عميق ، بعدما أرهقهم ما بذلوه من مجهود في مثل هذا اليوم القائظ ، وعندما دخل ميلاد ليطل عليهم فيقرر بقاءه أو ذهابه وجدهم قد ناموا — بعرض السرير — الى جانب اولاد أخيه على أحد السريرين الموجودين بغرفة النوم • لم يكن هناك مفر اذن أن تنام الاختان على السرير الآخر ، وأن ينام هو وأخوه على الكنبتين الموجودتين بالصالة •

وكانت الصالة متوسطة الاتساع، بها كنبتان وأربعة مقاعد من طراز فخم قديم وسجادة يبدو أنها ثمينة لكن عمرها اليوم لا يقل عن أربعين عاما •

وعلى الجدران علقت أربع صور ، على كل حائط صورة . أما أقدمها فكانت صورة ذات اطار خشبي بني ضخم محفورة فيه نقوش زخرفية التقطت حين كان ميلاد وشفيق في مرحلة الدراسة الجامعية . وكـان الوالدان في مقدمة الصورة ، يجلسان على مقعدين وهما يبتسمان ، ومن خلفهما وقف ابناهما وقد وضع كل منهما يده على كتف الآخر في ود أخوي . أما الصورة الثانية فكانت ذات اطار ذهبي ، التقطت ليلة زفاف الشقيقين فبدا الاربعة في ثياب العرس وهم يقفون هذه الوقفة التقليدية أمام عدسة المصور . والصورة الثالثة ، وكانت أكبر الصور حجما ، لرب الاسرة ابراهيم افندي . والواقع أنها لم تلتقط على هذا النحو ، انما هو تكبير لاحدى صوره مع الاسرة أجري بعد وفاته تخليدا لذكراه. أما الصورة الرابعة فكانت صورة بالألسوان للمسيح مصلوبا تعلـن للداخلين عقيدة سكان هذا البيت .

وفي الخارج كانت أنوار المدينة تتناثر وتتباعد وظلمة الليل وقتامته تتكاثف وتتضاعف ، ونسمة هواء رحيمة تهب في رقة ، فقد انزاح كابوس القيظ الذي جثم على المدينة طوال النهار ، وتسللت مكانه برودة لطيفة ناعمة منعشة .

وكانت فرحانة هي وحدها التي تتجول الآن في البيت تعد طعام العشاء .

وفرحانة شهدت في طفولتها مولد ميلاد ومولد شفيق ، كما شهدت فيما بعد أفراح هذه الأسرة وأزماتها ومآتمها: انفعالها على وجهها وبجسمها يوم زواج ميلاد وشفيق ، كانت أولى المزغردات ، ويوم المعركة التي لا تنسى كانت أكثر الناس جزعا وأعلاهم صراخا ، وهي عند الموت تتصدر الندابات . ,كانت فرحانة شاهدا على هذه الاسرة .

~~وكانت فرحانة شاهدا على هذه الاسرة .~~

وكانت الآن قد أعدت طعام العشاء ، وتحاول أن تقنع الشقيقين

بالجلوس الى المائدة ، فلم يتناولا طعاما بصفة منتظمة منذ عصر أمس ، وكانت لا تعرف على وجه يقيني سبب انصرافهما عن الطعام ، أتراه حزنهما أم هو رغبتهما عن الجلوس الى مائدة واحدة • فهي لم نشهدهما يسترسلان في حديث ما ، مجرد كلمات مقتضبة ، يتبادلانها من حين لآخر لتصريف شأن من شؤون الجناز أو المعزين • أما الزوجتان فقد بدأ التفاهم بينهما منذ وقع حادث الاغماء ، مقتضبا سريعا أول الامر ثم استطال شيئا فشيئا ، وكأنما وجودهما في هذه الشقة وهو مكان أوضح حدودا من الكنيسة والمقبرة والسرادق قد أملى عليهما هذا التفاهم ، تدفعهما اليه رغبة دفينة في وضع حد لهذا الخلاف الذي دمر علاقتهما وسمم عواطف أطفالهما • وكان اجتماعهما معا ــ ولو على حساب لحظات النزع ــ وسيلتهما الى ذلك •• فأكلا وشربا وأكل وشرب أطفالهما وتحدثا وتهامسا ولعب ونام أطفالهما معا •

كان ميلاد واقفا كأنما يتأمل تفاصيل الصالة •• عبرت عيناه على الكنبة والكرسي •• السجادة ذات الالوان الحائلة ••• الطعام الذي لم يمسه احد • وكأنما الجميع يتهيبون اللحظة ••• الخبز وأطباق السلطة •• الحساء •• الشوك والملاعق والسكاكين •• وكميات كبيرة من اللحم •• هل هو عشاء أسرة حزينة أم وليمة •• واستفسر ميلاد كأنما ليقطع هذا الصمت :

ــ ما كل هذا اللحم يا فرحانه ؟

ــ هذا خروف صغير ذبحته قبل أن تخرج الخشبة صباح اليوم يا سيدي •

ثم مضت تثرثر لتقطع هذا الصمت الذي اتصل :

ــ في بلدنا عادة يا سيدي أن تذبح ذبيحة •• دجاجة كانت أو خروفا • وتجعل الخشبة تمر فوقها •

ــ ولم ؟

ـ فدية عن الميت يا سيدي •• ألف رحمة عليها •• اتفضل كل يا سيدي •

كانت أزحم أيام العام بالعمل لديه هي أيام عيد الاضحى ، فقد كان عدد البهائم ـ لا سيما الخراف ـ يتضاعف ، وهو يراها تقبل على المذبح مستسلمة لمصيرها ، ومن حين لآخر كان ميلاد يشهد تمرد حيوان على مصيره • وألحت عليه صورة ثور فتى ضخم أقبل على المذبح ذات يوم فأهاجه لون الدم المسفوك على ما يبدو ، فقطع القيد المشدود اليه واندفع يجري في وحشية حتى شق طريقه خارج المذبح مما تطلب الاستعانه بالشرطة • فما هي دقائق حتى عاد مشدودا الى قيد جديد • غير أنه كان ما يزال يحتفظ بكبريائه وتمرده ، وبدا له أن لهذا الثور مهابة وجلاله ، وأنه لو تقدم به الزمان بضعة آلاف من الأعوام لاختير الها من بين فصيلته ، ولما قدمه قربانا الا رئيس الكهنة في حفل ديني رهيب • ولم يشهد ميلاد ـ على كثرة ما شهد ـ حيوانا تعذب كما تعذب هذا الثور عند ذبحه • فما أن مسه السكين حتى هب واقفا على قوائمه . والدم يتدفق أحمر قانيا حتى لكأنه لن ينقطع عن التدفق ، وسار يترنح بضع خطوات ، حتى بث الذعر في جزاريه ، فأفسحوا له المكان وتحفزوا للقائه من جديد ، غير أن قواه ما لبثت أن خارت ، ووقع على الارض فتجمع عليه أكثر من جزار يجهزون عليه ، ومع ذلك ظلت قوائمه تتحرك حركات تشنجيه وهو يكنس الارض بذيله ، وعضلات بطنه ترتفع وتنخفض بسرعة ، بينما مقلتاه تحدقان في ضراعة الى جزاريه ، وقد فتح فاه وتدلى لسانه وهو يلهث كأنما بسبب ظمأ مخيف ، أو كأنما هو في نهاية سباق طويل عنيف ، ثم خار خوارا أقرب الى الأنين اهتزت له أرجاء المكان •• حتى استرخى ولفظ أنفاسه •••

وأمس ماتت والدته •

اما شفيق فكان يقف الآن يدخن سيجارته ـ ربما الأربعين أو

الخمسين هذا اليوم فسجائره اختلطت بسجائر الآخرين — وكان ينظر الى الظلمة الخارجية من نافذة أمامــه فتلفحه نسمة منداة برطوبة الليل • وحفيف الأشجار التي تتناثر في حي الدقي يذكره بوشوشة الحقول قبيل الحصاد وأخوه واقف في الركن الآخر من الصالة منحن الى زوجته التي أقبلت كأنما هو مشغول بحديث هام يسره اليها ••كيف هو منظر اللحم عند كنفه الآن ••• هل هو مشوه يحمل حتى الموت بصمة نزاعهما ؟ ونساءل للمرة الألف عما اذا لم يكن هذا النزاع هو الذي عجل بموتها ، ورفــع بصره •• فلمح صورة أبيه ••• وتذكر ما قصه عليه عشرات المرات عن ابراهيم وكيف أراد الله أن يمتحنه فأمره أن يضحي بوحيده ، فأطاع أمره، وصعد على الجبل حيث ربط ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد يده وأخذ السكين ليذبحه ، فناداه ملاك الرب قائلا : لا تمد يدك الى الغلام ، فرفع ابراهيم عينيه ونظر واذا بكبش وراءه في الغابة ، فأخذه وأصعده محرقة فدية عن ابنه •

والتقت عيناه ببقية الصور المعلقة••تأملها صورة صورة، وأحس أنه يرتد الى طفولته ••• في حاجة الى الحنان والطمأنينة ، فقد أمه •• ليس له في العالم الآن الا أخوه •• وألقى بقية السيجارة الى النافذة ، جمرة نار غرقت في الظلمة •• ونفسه تفيض •• تفيض بعاطفة •• عاطفة جرح يريد أن يلتئم •• انه يريد أن يعبر المسافة •• أن يعبر الهوة •• أن يحطم السور الذي ينتصب شامخا بينهما •• يريد الخلاص •••

عندئذ هبت نسمة طرية هزت المصباح الكهربائي المعلق ، فرقص النور ، واتجــه الشقيقان نحو المائدة ، وأقبلت الاختان •• وجلسوا جميعهم في صمت يأكلون •

ديسمبر ١٩٦١

الحذار

ليس يدري مأمون الى أي حد هو يشابه الناس في مشاعرهم .. وهل تراهم يتعلقون مثله بألم قد يطول ، أو تراهم ينسون .. وفي كـل فجـر يجددون حياتهـم ويمضون ! انه ليلقاهـم في الطرق والترامات والسيارات فيجدهم يتحدثون ويبسمون ، وينظر الى نفسه فاذا هو كذلك يتحدث ويبسم ، فيتساءل عما اذا لم يكن وراء أحاديثهم وبسماتهم ثمة مرارة تهجع في ركن قصي من قلوبهم ، كلما أقبل الليل وخلوا الى أنفسهم تداعى نشاط النهار الذي كان يستمد تماسكه من وجود الناس معا ، وفتحت امامهم ثغرة يطلون منها على ما انزوى في أعماقهم ، فبدت أمامهم مدينة يعرفون جيدا طرقها ومسالكها ، أزقتها المتربة المهملة وقصورهـا الفخمة المشيدة .. فيتمشون بين قصورها وأبهائها وهم يغلقون أجفانهم وينطوون على أنفسهم .. حتى اذا تبلج الصبح عادوا يرتدون ثيابهـم ويرتدون معها أحاديثهم وبسماتهم ...

ولشد ما طرب حين نقل ذات يوم الى ديوان بوزارة المالية ليعمل بين بضعة مكاتب تضم خليطا من الكهول والشباب ، ذلـك أن روح الفكاهة كانت تسيطر عليهم جميعا ، وعملهم ــ الذي يبدو أنه من أهم اعمال الدولة وأخطرها ــ لم يمنعهم من أن يتلهوا ساخرين بسرد آخر

حوادثهم الجنسية والعاطفية على أعضاء مجتمعهم الصغير • فهو يتسمع أحاديثهم ويلتقط معانيها وتورياتها أثناء تحركه بينهم ، يحمل اليهم القهوة أو ينقل الاوراق بينهم •

ولقد كان خجلا أن يصغي الى مثل هذه الاحاديث في أول الامر ، فالناس علموه أن يصمت عن هذه الامور أمام الغرباء على الأقل ، لكنه ما لبث أن أحب هذا النوع من الصراحة والوضوح والتهكم • ومع ذلك فأحيانا ما كانت تساوره ريبة عما اذا لم تكن هذه الاحاديث والضحكات والنكات تخفي وراءها شيئا مريرا وفظيعا حقا قابعا في كل نفس من نفوسهم •

ذلك أن لكل انسان ـ مثلما له ولك ولي ـ سرا كبيرا ، شائعا في الروح ، منسابا في حنايا النفس ، صامتا مسيطرا ممزقا ونحن به معتزون ، لانه وجودنا الحقيقي المستقل ، فكل ما نبوح به للآخرين لا يعود ملكنا الخاص بل يصبح خيوطا عنكبوتية تربطنا بهم ، أما البله فهو سر ، أما الجنون فهو سر ، وهو يحس في نفسه ذلك المكان الأبله ، ذلك الجنون المرير المغلق على نفسه ، يحدث الآخرين عنه ، لكنه يهذي به ولا يبوح ، لانه لا منطق له ولا مدلول ، وأيام العمر تنزلق وهذا السر ينساب بينها خيطا رقيقا مرهفا لينسج حياة كاملة تشارك في تراث جندي مجهول •

انه يعمل ويحصل على أجر ، ويبسم فيبسمون ، ويغضب فيعبسون ، فكل ما هو عريان أمام الناس يلقي جزاءه ، أما هذا السر فهو دائما مكان ابله ، هو جنون مرير وهو وحده وجوده الحقيقي الخالص • وهو شديد الشبه بذلك الالم في قدميه ، انه وثيق الصلة بذلك الحذاء العتيق الضيق الذي لا تكاد تتمتع فيه قدماه الضخمتان بحرية ، هو وثيق الصلة بذلك العرق والعفن واللزوجة التي يحسها في قدميه كلما خطا خطوة أو حاول أن يقفز قفزة •

ويوم أضرب الطلبة وسارت المظاهرات وهتفت الجماهير وقتل ثلاثة

منهم في الميدان الكبير كان قد أصلح حذاءه للمرة الخامسة ، ثم مضى يحمل الاوراق ويرفع الاقداح ، وسمعهم يتحدثون ويتفكهون ، وهو يصعد ويهبط ويهبط ويصعد، شاعرا ان العمل المنوط به مرهق وعبث، وأن قدراته تؤهله لوضع آخر لا يستطيع أن يدركه ادراكا واضحا ، لكنه يستشعره كلما وجد أنه لا يزال في الثانية والعشرين ، وانه قادر على ان يشتهي كل امرأة ، وان قوة جبارة مدمرة تكمن في دمائه وجسده وتمتد الى اطرافه ، وكان يبحث عن اشياء يتحداها ، لكن رقة الناس وظرفهم وتجاهلهم المؤدب لطاقاته وأحلامه لم تكن الا لتطمس كل تفتح يضطرم في أعماقه ، فيحس بلون من الشيخوخة يغمره حتى ينزعج ، ويزداد انزعاجا كلما ادرك انه ربط الى عجلة لافكاك له منها ، وكل عام يمر بل كل يوم وكل لحظة يحياها تزيده ارتباطا بهذه العجلة ، وتفقده كل امل في التحرك والصعود ، فهو يزداد تقيدا بهذا النوع من العمل ويزداد غربة عن كل مقدرة اخرى •

ويوم هدد المهندسون بالاضراب كان ذاهبا يصلحه للمرة السادسة••

ويوم أضرب عمال التلغراف ــ وهو لم يستعمل التلغراف في حياته ــ كان قد اصلحه للمرة السابعة وقد بدأ يخاف نفسه ، ويخشى ما يزدحم فيها من قوى الكآبة والشهوة ، بدأ يحس أنه مدفوع نحو جريمة ، فظيعة ومجهولة ، لا يعرف أين تقع ولا متى تقع ، لكنه يملك أسبابها في بدنه وشعوره ، وكلما تقدمت به الايام اصبح اكثر اقترابا منها ، فكل دقيقة وكل لحظة يحياها تدفعه دفعا نحوها ، واذا لم يستطع التحرك في وضح النهار فليتحرك اذا تحت ستار الظلمة ويضرب في العماء المتسع الكبير ،ربما سيمر مخمورا ذات ليلة عند منعطف الطريق الى منزله ، ليضرب رأس الشرطي الواقف هناك أبدا كأنه فكرة مجنونة تعاوده ولا تريد الابتعاد عنه ، او ربما سيمر ذات ليلة تخفى منها قمرها ليسرق شيئا مما ينشره هؤلاء القوم في شرفتهم المنخفضة كل مساء ، أو لعله سيكتشف ثأرا

قديما او يبرز له عدو او غريم •

واغتيل احد الكبراء ، وانتشر وباء في المدينة ، وآصلح حذاءه للمرة التاسعة ، وجريمته التي يخشاها قد اخذت تتحدد فيما يبدو له • فقد ثياب النساء أخذت تفقد من ذهنه حقيقتها ووجودها فوق أجسادهن •• اصبح يخشى اشد الخشية ان يرتكب ذات يوم فضيحة أخلاقية ، لان فهو في حلم يقظته ما يلبث آن يجرد المرأة الواقفة امامه او الجالسة الى جانبه ، وهوينظر في عينيها ، ينظر اليهما في احتياج مرير ، ولا يتبقى بينه وبين الفعل الا رعشة مجنونة حمقاء ، ثم يلمح حذاءه العتيق الضخم ممتدا أمامه كأنه تحذير أو نذير ، فيتضاءل وينتابه مزيج من الخجل والحياء والخوف ، دائما من شيء فظيع ومجهول ، ولا يلبث أن يتحرك في شبه معجزة بعيدا عنها كأنه شيخ مسن تأنفه العذارى • ومع ذلك فقد كان يتلمس وسطهذا الخليط الحي القاسي ــ وفي عيني جارته خضراء ــ خيطا مرهفا من طلائع خلاص سعيد يستشعره ولا يكاد يتبينه ، كأنه شعاع ناعم من النور ضل عنه وسط هذه الظلمة •

ثم انتشر الوباء الاصفر ، وأضرب المدرسون والطلبة والطالبات ومرضت امه ، وأغلقت الجامعات وحوصرت ، وصودرت الاجتماعات وصودرت الصحف والصحف والصحف ، وانتحر اخوه وهو ذاهب يصلح حذاءه للمرة العاشرة •

وكان عليه أن يسير ويسير في طرقات المدينة وأزقتها ، مشتعلا مع القيظ مختنقا في ملابسه ، مجنونا مع السر الكبير الشائع في كل مكان •• سار بحذائه في الشوارع ــ المتسعة الكبيرة ، وفي الازقة الرطبة المختنقة ، على الارض المحترقة في وهج الشمس ، وفي الوحل المزدحم عند المنعطفات والزوايا •• داس به قاذورات الناس واعقاب السجائر والحشرات الهائمة المطمئنة ، وصعد به الدرج والترامات والسيارات ، ورأى ــ وهو يضغط قدميه ــ الفتيات والنساء والنساء الفتيات ، ثم ركل به كلبا وكلبا ثم

الطوب والطوب المنتشر في كل مكان وعلى كل أرض ..

وكان قد بدأ يشرف على تبين عاطفته نحو خضراء ، وبدأ يحس بحاجته الى حذاء جديد عندما رأى شهوته هنا يمازجها شيء غامض وجميل وسعيد ، عندما ادرك انه احب امرأة بالذات ، قد استنشق من عطرها العنيف وغرق في عينيها الواسعتين ولمح خطوط جسدها المنحنية خلف ثوبها الاحمر .. فمضى يتعرف من خلف واجهات المحال على عالم الاحذية بأنوانها وحجومها ، شاهد الاحذية البيضاء والصفراء، والبيضاء والحمراء ، والحمراء والسوداء ، آحذية الاطفال واحذية الكبار ، احذية الصيف واحذية الشتاء ، آحذية السيدات لاقدام السيدات وأحذية الرجال لاقدام الرجال كلها مزركشة وجديدة ومتينة وكثيرة خلف الزجاج ، الزجاج والبللور والحرمان ، ثم الحفاة والحفاة لا عدد لهم ولا حصر ، يدوسون في وحل الشتاء وقيظ الصيف وهم يمضون ويمضون نحو غايات مجهولة وحاجات مسلوبة ومآرب لا تبتدىء ولا تنتهي ...

وفجأة احترقت القاهرة ، وخلت الطرق من الترامات والسيارات ، وانتشرت الخوذات النحاسية والازرار الصفراء والوهج والحرمان والمدافع والبنادق والشحاذون ــ والضيق والعصي ، وهو ذاهب يصلح حذاءه للمرة الحادية عشرة ..

وكان الاسكافي رجلا في الخامسة والخمسين ، في لحيته ــ النامية قليلا ــ شعرات سوداء واخرى بيضاء ، أمضى في انحناءته هذه اربعين عاما ، منذ كان صبيا في الخامسة عشرة وهو ينظف الاحذية ، ثم يرقعها ويرقعها الى الابد ، ولم يكن قد سئم الترقيع يوما ، فهو يكتسب منه أكثر مما يكتسب من أحذية جديدة ، فهذه الحرب وهذا الغلاء والضنك الذي يحيا فيه هؤلاء لا يجعلهم يفكرون في عمل أحذية جديدة . بل دائما يريدون ان يرقعوا القديم ، أن يصلحوه عساه يستمر شهرا او شهرين ، ثم يعودون من جديد ليضع رقعة هنا او رقعة هناك ، وما كان في مقدور

الاسكافي ان يسأم الترقيع ما دام الناس قد أجبروه على أن يكون هذا هو عمل حياته ، وهم يرقعون كل شيء : أحذيتهم وملابسهم ونظام حياتهم عسى أن يظل كل شيء كما هو حتى اللحظة المقبلة ، مدركا ان كل فتق يأتونه به هو تضخم لرتق قديم ، وكل رتق جديد هو طلائع فتق أخطر مقبل،ولكن الامر الخطير هو أن حذاء مأمون قد بلي تماما وتمزق بحيث لم يعد يحتمل الرتق ولا الترقيع ، وقد اشرف على نهايته هذا الجهد المستمر اليائس للوصول الى خير ما يمكن ان يكون بحذائه هذا •

وكان دكانه لا يزال كما هو مضطربا تشيع فيه الفوضى ، وتنتشر فيه احذية الناس ونعالهم وقباقيبهم والمسامير ورائحة الجلد المنقوع في الماء ، وغلالة من التراب تستر هذه الفوضى جميعها وتشيع بينها نوعا من الترابط والتآزر المفجع الكئيب •• والاسكافي يطرق شيئا بين يديه ، ثم ينظر نحو مأمون في اهمال • وآمله ان يرى الاسكافي يحتقره ، وحز في نفسه ان يحييه فلا يرد عليه ، بل يزعق في الصبي يريد المخرز ، وتلفت ثم تردد ثم جلس على المقعد الوحيد المنخفض المتكسر بالمكان ، وثمة عجز ثقيل يسيطر عليه ، وقوى الواقع تسلبه كل حق في التكلم او الاحتجاج •

وقلبه بين يديه في استنكار ، ثم رفض فرجاه ، لكنه رفض فألح عليه ، ثم زعق الواحد فزعق الآخر ، وهز الاسكافي يديه ومد مأمون عينيه ثم رجاه ورجاه فقلبه وقلبه :

ـ لا فائدة •

ـ بل ارجوك

ـ قد لا يجدي

ـ بل ابذل جهدك •

ـ ابذل جهدي ؟

ـ آخر مرة •

ـ آخر مرة •

ــ نعم آخر مرة ..

ورآه يدق مسمارا ويغرز مخرزه ثم يلتقط الابرة وينادي الصبي ويوقد المصباح ويدق مسمارا ويغرز مخرزه ويغرز ابرته ويبصق ويتناول خيطا ثم خيطا ثم يقطع بسكينته قطعة من الجلد فقطعة اخرى فثالثة فرابعة ، ويتناول مسمارا ثم مطرقة ، ثم يعود يلقي هذا يمينا وتلك أمامه، وينهض وينحني ويجلس ويتمخط ويزعق ثم يبسم ويعطيه الحذاء ، واختلفا على الاجر وعبس الواحد وعبس الآخر ، ثم قدم مأمون سيجارة واشعل له الاسكافي سيجارته وابتسما وخرج .

وفي كل مرة كان مأمون يسترد حذاءه وقد اصبح اكثر غربة عنه ، كان يراه قد ازداد هرما وازداد تساندا في غير فائدة . الا أنه في هذه المرة لم يره قدتغير الى هذا الحد فحسب بل احسه غريبا عنه عندما عاد يضغط فيه قدميه ، فقد عبثت به يد الاسكافي حتى أصبح أكثر ضيقا عن ذي قبل ، وكأنما قدماه اللتان تمتعتا ببعض حريتهما أثناء هذه اللحظات قد ازدادتا تضخما ، تضخما ملحوظا وحقيقيا وموجودا .

في ذلك اليوم أخذت تتضح له هذه المعركة الخفية التي كانت قائمة منذ زمن بعيد بين قدميه والحذاء ، فأحيانا ما كان يحس بالحذاء بعض الضيق وبعض الالم ، غير انه قبل ان يشتد الالم ويحس بالضيق واللزوجة والعرق يجد ما ينقذه فيركب الترام او يكون قد وصل الى حيث يريد . أما في هذا اليوم .. عندما كانت القاهرة تحترق ، والخوذات ــ النحاسية والازرار الصفراء في كل مكان فكان عليه أن يسير ، ان يجابه الحقيقة التي طالما أخفاها عن نفسه في ساعات النهار وساعات الليل .. كان عليه ان يتتبع الالم وهو ينمو شيئا فشيئا ، والحذاء وهو يضيق شيئا فشيئا ، وقدماه تتضخمان وتتضخمان ..

ولقد بدأ الالم اولا في الاصابع الامامية ، لم يكن من الممكن أن يتعرف على واحد منها يتركز فيه الالم ويشيع منه ، فقد كان منتشرا فيها

جميعا •• ثم انتقل فجأة الى عقب القدم اليسرى حيث كأنما ثمت تسلخ أخذ يشيع وينتشر في خفة اولا ثم أصبح فظيعا ومخيفا ، وتقلصت عضلات وجهه ، وكأنما قدماه تشويان الآن من كل مكان ، من الاصابع ومن العقب ، ومن الجوانب ومن اسفل ومن فوق ، وأخذ يعرج قليلا ، وهو يواصل سيره ، يواصله بلا انقطاع حتى لا يعاني الا اقل وقت ممكن من الالم ، وكلما اقترب من المنزل أحس ان المسافة لن تنتهي لن تنتهي •• والالم يزداد ويزداد كأنه دعابة سمجة لا تحتمل •

وكان النهار قدأشرف على الزوال حين وجد نفسه فجأة في المنزل ، فخلع سريعا حذاءه وخلع جوربيه وتأمل جوربيه وتأمل قدميه • اما حذاؤه فكان الآن متماسكا متساندا متربا قبيحا ، أما جورباه فألقاهما بعيدا فوق الارض ، فرقدا هناك كأنهما كائنان اسودان متعفنان والخروق فيهما كانها احتجاجات قديمة مهملة ، أما قدماه فقد أخذت اصابعهما تتحرك جميعها محتكة ببعضها كأنها تتهامس فيما بينها بشكوى غريبة مؤلمة ، وهي تنفض عنها العرق المتصاعد كرائحة الخل نحو عالم خفي غير مرئي • كانت لقدميه جغرافية مستقلة بهما شاذة وغريبة واصابع كل منهما كأنها أطراف كثيرة مبعثرة لمسخ مشوه ، وقدماه ضخمتان تستلقيان منهكتين على ارض الغرفة الكبيرة المتسعة تتنسمان الحرية والهواء الرطب • كان ثمة شعيرات وثمة تسلخات فوق الاصابع وثمة الم شائع ثم احمرار مخيف في عقب القدم اليسرى لا يكاد يلمسه حتى يحس بلذة مرهقة في الضغط عليها ، فأخذ يتحسس قدميه في رفق وحنان ، ويمر بأنامله عليهما وهو يتأمل ما صارتا اليه •

ثم تلفت نحو الفراش وأخذ يزحف ، يزحف ببطء وانقباض •• وثمة صوت يدعوه الى الطعام وهو يزحف ويتسلل ويزحف ونفسه تنطوي على نفسه ، وتماسك النهار يتداعى وحشد من المشاعر يتزاحم ، وثمة مدينة يسودها الحريق ، وطلقات البنادق بين حين وآخر

والعصي والخوذات والمدافع والازرار واقداح القهوة واوراق الموظفين تصعد وتهبط ، وتهبط وتصعد ، واللزوجة ، واخوه انتحر ، والعفن والاضراب وامه تموت والازقة في الحروب في الوحل في الفتيات في النساء ، وعينان خضراوان والشعر الناعم ليلة الزفاف وآخر مرة نعم آخر مرة ، ومدينته ذات الازقة والمرايا والبللور وما خلف الزجاج وبقايا اطرافه ، ووضوح نبضاته .. نبضاته والسديم المزدحم بالصخور ذات العروق القاتمة الزرقاء ، واجفانه تنغلق تنغلق .. والظلام يرخي سدوله ويزحف ويتسرب وينتشر ، وثمة حدث خطير وعظيم ينتظره ولا يخشاه .

أبريل ١٩٥١

شربات

في الصباح الباكر خرجت شربات في ثوبها الجديد وشبشبها الجديد لتشتري الخبز والفول ، لكنها لم تعد • وعندما يئس سيدها كمال خرج قلقا يبحث ويسأل لعلها ضلت طريق العودة ، فعمرها صغير لا يتجـاوز العاشرة ، وهي حديثة العهد بشوارع الحي •

وفي الرابعة بعد الظهر ــ ورغم شدة القيظ ــ كان الاستاذ كمـال في طريقه الى ابيها • والاستاذ كمال مدرس في حوالي الاربعين من عمره ، زحف الصلع على نصف رأسه فتركها تتوهج في القيظ ، وهو طيب القلب وطيبته تتيح لطلبته ان يقرفوه ، ولزوجته ــ التي ورثت بضعة فدادين عن والدها ــ ان تقرفه ،ولا يتبقى امامه الا خدم منزله ليقرفهـم بدوره ، فيتخلى عن طيبته لحظات حين يضربهم بسبب واحيانا بلا سبب •

كان يعرف العنوان وان لم يكن قد ذهب اليه من قبل •• وكـان يعرف من شربات انها تسكن مع أسرتها في غرفة فوق سطح منزل مكون من طابقين بجواره حقول واسعة ، وكان طول الطريق وكثرة المواصلات (من مصر الجديدة الى امبابة) قد اقلقاه بشأن مصير البنت ، صحيـح أنها كانت تبكي أمس وتوسلت ان تعود الى بيتها ، لكن هل يمكن لمثلها

ان تقطع بمفردها هذا الطريق وهي التي لم تسلكه الا يوم مجيئها مع أبيها ؟..

وفتح أبوها الباب ، وفوجىء الاستاذ كمال بالبنت امامه ، بجسدها الضئيل ، وبشرتها القمحية الضاربة الى الشحوب وشعرها الخشن القصير وقد ارتسم على وجهها رعب هائل لدى مرآه . كانت ما تزال ترتدي فستانها وشبشبها الجديدين . كيف وصلت هذه الشيطانة الصغيرة الى هذا المكان البعيد .. هو نفسه كاد ييأس من العثور عليه .. لولا اهمية المسألة التي جاء من أجلها لعاد قبل ان يصل .. سأل اكثر من شخص ، واتجه عكس الطريق المقصود ، وابتل منديله بالعرق وما يزال على وجهه عرق جديد يحتاج الى منديل جديد .. لا بد وأنها عرفت بيتها بحاسة كحاسة الشم لدى الكلاب .. المهم أن عبئا ثقيلا قد انزاح عنه الآن ، فقد اخلى نفسه من مسئوليتها ، وبقيت امامه المهمة الاخرى . مهمة ارجاعها كما أوصته وألحت عليه زوجه (ان كان الامر بيده فهو لا يريد خدما ولا مشاكل الخدم ولا قرفهم) .

كانت الغرفة تعبق بخليط من رائحة العرق والجبن القديم . على الارض مرتبة ينام عليها طفلان ، وفي زاوية سلتان وموقد بترولي . وفي زاوية اخرى صندوق خشبي كبير ، وثمة حبل بين حائطين علقت عليه مجموعة من الملابس ، وقلة وضعت على قاعدة النافذة الوحيدة بالغرفة ، وبجوار الباب كنبة عليها كيزان وعلب ورنيش فارغة وبعض قطع الزلط .

واعتذر عليوه للبيه ، فالمكان لا يليق بالمقام ، ثم اعتذر مرة اخرى بما سببته له هذه البنت الملعونة من تعب : « كنت ناوي ارجع لك بيها يا سعادة البيه ساعة دخولك علي » . ذلك أن شربات لم تصل الا منذ قليل ، احضرها رجل اسمر طويل ، يقول انه يعمل بوابا .. أصله ابن حلال ... قابلها في الطريق وهي تبكي ... « واديته الحلاوة ، خمسة صاغ يا سعادة البيه وحياتك .. » .

كان عليوه في الثلاثين ، وان كان يبدو في الاربعين ، نحيل الجسم كابنته ، قصير القامة ، أسمر الوجه ، خشن الذقن ، عصبـي المـزاج ، ذراعه اليمنى محروقة مشلولة ، أما ذراعه اليسرى فما تزال ذات كـف ضخمة •

وهبط ليطلب فنجاني قهوة من المقهى القريب ، وعاد يحمل معـه مقعدا للبيه ، وقدم سيجارة ، واعتذر الاستاذ كمال ، وشربات واقفـة ترتعد كأنها عارية في عز البرد ، تود لو تستطيع أن تختفي لولا ان البيت ليس الا هذه الحجرة الواحدة •

والتفت اليها سيدها متلطفا (وان كان قد ضربها أمس ضربا عنيفا) وسألها : انت هربت ليه يا شربات ؟ فحدقت نحوه بعيون مستعطفة دون أن تجيب •• بل انها حاولت ان تجيب لكن صوتها لم يخرج ، فصرخ فيها أبوها : جاوبي على البيه يا بنت الكلب • وخرج أخيرا صوتهـا هامسا مبحوحا : أصلي مش عاوزة أشتغل في بيوت •

كان هذا أول عهدها بخدمة البيوت ، وعندما أحضرها أبوها منـذ أسبوع الى منزل الاستاذ كمال ثم تركها ادركت أنها خدعت ، أخبرها انه سيأخذها الى بيت خالتها ، وظنت أنها ستلعب فيه كما كانت تلعب فـي الشارع ــ بعد عودتها من المدرسة ــ أمام بيت أبيها مـع أختها حمدية وابنة عمها زينب • كانت لعبتهن المفضلة وضع أوراق الشجر في كـيزان من الصفيح ثم تطهو هذه الاوراق على نار وهمية ، فاذا تم الطهو وضعت الاوراق في اطباق من علب الورنيش الفارغة •• وكانت احيانا ما تغسل أواني البيت الحقيقية القليلة او تكنس الحجرة التي يعيشون فيهـا او تحمل أخاها الصغير جلال • لكنها عندما دخلت هذا المنزل الغريب احست أنه لا يمكن ان يكون بيت خالتها ، فيه أكثر من حجرة ، وبه راديـو وتليفون ، وأشياء أخرى رأتها لاول مرة ولن تنساها كالثلاجة والسخان والعروسة الكبيرة التي تملكها ستها الصغيرة ، كلما حركتها فتحت عينيها

ثم أغمضتهما وهي تخرج صوتا كالبكاء .

وزعق فيها أبوها : هو بكيفك يابت ؟ ثم انخفض صوته وصار أكثر حنانا وهو يقول : طيب أنا دلوقت خالي شغل . وأنا آكل منين وانت تأكلي منين ياشربات ؟..

فقد كان عليوه يشتغل فرانا ، ثم انفجر الفرن ذات يوم وحرق الفرن وصاحب الفرن كما حرقت ذراع عليوه اليمنى بحيث أصبحت مشوهة عاجزة : الحمد لله اللي أبوك عاش ، ولا يا ريته كان مات ؟.

عندما أحضرها الى بيت البيه ، لمح الاشمئزاز والتأفف على وجه الهانم ، ربما كان سببه ثوب شربات ، وربما كان حاذؤها .. لكن أكثر ما ألمه هو ما بدا من أن السيدة لا ترتاح الى رائحة ما تفوح من ابنته ، فقد وضعت اصبعي يدها اليمنى ــ او اليسرى ــ على فتحتي أنفها لتعرب عن امتعاضها بطريقة ملحوظة كأنما هي من عجين وبنته من طين . وسمعها تعترض قائلة : دي صغيرة جدا ، كنا عاوزين بنت أكبر . وأجاب عليوه ــ كأنما يعرض أرغفته على زبون ــ : لكن دي نبيهة تقدري تعلميها كل حاجة يا ست هانم ..

واجابت البنت في اصرار : أنا مليش دعوة ، مش عاوزة أشتغل في بيوت ، وتلمست شعرها المقصوص كأنما تعبر عما أصابها من اهانة ومذلة .

فعندما تركها أبوها وهي تكاد تبكي ، اكتشفت سيدتها أنها ترتدي ثوبها الممزق على اللحم ، وأن شعرها القصير الخشن يموج بالحشرات ، وبعد ساعات قلائل كانت السيدة قد فصلت لها فستانا صغيرا من ثوب قديم لها ، كما دبرت لها شبشبا من حذاء سابق لابنتها ، وأحضرت لها بعض الملابس الداخلية لخادم سابقة (وكانت قد احتفظت بهذا جميعه لمثل هذه الظروف) ثم ادخلتها الحمام وأشرفت بنفسها على استحمامها واهتمت بغسل شعر رأسها ثم امرتها ان تدهنه بالجاز ، ثم اخذت تمشطه

لها ، وكلما فازت بحشرة او حشرتين أصابها الغثيان (شيء يقلب المعدة) ثم لوحت بالمشط آمام وجه الصبية حتى لتكاد تدسه في آنفها وهي تصيح في شبه انتصار : شوفي •• شوفي البلاوي اللي في شعرك • ثم تعود تمشطه لها في عصبية• فأخوف ما تخافه الهانم أن تتسلل هذه الحشرات اليها والى اطفالها • ثم •• ثم حدثت المفاجأة التي أذلت الصبية وكسرت نفسها تماما ، فقد أمسكت سيدتها بالمقص واخذت تقص شعرها — الذي يميزها عن الصبيان — حتى أتت على أكثر من نصفه ، فأصبح أقرب الى شعر الاولاد منه الى شعر البنات •

وآثارت اجابتها ثائرة والدها ، فقام ينهال ضربا وركلا وشتما ، على شربات كبرى بناته وأحبهن اليه ، شربات التي تعود — وعودها — أن يعطيها قرشا من كل أجر يقبضه ، والتي أرسلها الى المدرسة لتعرف القراءة والكتابة ، فلا تصبح مثله اذا شلت يده انقطع عيشه •• لكن ما باليد حيلة (ولا قوة) وها هي ذي أمك لم تأت حتى الآن لأنها تكد بدورها ، تغسل ملابس الناس في بيوت الناس حتى تظلم الدنيا كل ليلة، وأنا قبضت من هذا الرجل كل أجرك لمدة شهر مقدما وصرفته لآخر مليم، فاذا لم تعودي معه فمن آين أرده له، ماذا عسانا نفعل في الشهر القادم والذي يليه ويليه ، ستعملين عنده أو عند غيره ••• وأنا أبوك ، كيف تعصينني ، هل تحسبين أنني أعجز من أن أؤدبك بسبب ذراعي المشلولة ، أبدا ، ما تزال هناك ذراعي اليسرى سليمة قوية ، وما تزال هناك أقدامي بل وأسناني أنهشك بها اذا أردت •

وهكذا كانت الضربة تأتي حيثما اتفق •• في ظهرها •• في وجهها•• في صدرها •• والبنت تبكي بكاء مكتوما أقرب ما يكون الى الأنين ، حتى شاهد كمال — وهو يحتسي القهوة — عليوه يجثم عليها ويضربها بملء كفه الغليظة — كأنما يستفيد بخبرته السابقة في العجن — ثم ما لبث أن أمسك برقبتها حتى كاد يخمد أنفاسها ، وعندما تدخل الاستاذ

كمال ليفض بينهما خيل اليه أن ذراع عليوه اليسرى أقوى من ذراعيه السليمتين معا ، وكان يقول في نفسه : لعله يفهم ابنته خيرا مما أفهمها •• لعل هذه طريقة مجدية في اقناعها • ثم سألها بصوت مسموع : تيجي معايا يا شربات ، بدل الضرب والبهدلة دي : فأجابته في صوتها الخائف المبحوح : أصل أنا •• أنا مش عاوزة أشتغل في بيوت ••

أنت •• أنت نفسك تضربني ، وستي الصغيرة نادية تضربني •• هي تذهب كل يوم الى المدرسة ، نفسي أذهب مثلها لأحفظ القرآن وجدول الضرب ، ستي تضربني كلما أرسلتني الى السوق وغلطت في الحساب •• هنا كنت أنام من المغرب ، أما في بيتكم فلا أنام ، أصحو من الفجر ، وأنا لم أشبع نوما ، وفي الليل أكون آخر من ينام •• شربات هاتي للبنت تشرب ، شربات أغسلي الأطباق ، شربات امسحي الارض •• نظفي السفرة •• انزلي اشتري كراسة للولد •• انزلي هاتي شيكولاته •• هاتي رغيفين •• والدنيا ليل وأنا أخاف من الليل ، أخاف عيون القطط في الليل ، أخاف من الكلاب والعفاريت •• وستي الصغيرة تضربني •• وفي آخر الليل يعطونني لآكل •• عندك الجبن يا شربات والعسل والعيش •• لكني أريد أن أنام •• أتركوني أنام •• جوعي الى النوم أكثر من جوعي الى الأكل •• أنت نفسك تضربني حتى لا أنام واللقمة في فمي •• وهنا آكل متى أريد وأنام متى أريد ••

وغاب والدها لحظة ثم عاد وبيده قطعة خشب مستطيلة ، واستأذن الأستاذ كمال دقائق — غالبا ليتفادى من رؤية منظر لا يحبه — ومضى يبحث عن أقرب تليفون ليتصل بزوجه ويبلغها أنباء الموقف ويستطلع رأيها فيما يتخذه من خطوات • وجاءه صوت زوجه مستعطفا مصرا في بذل كل محاولة لارجاعها ، فالبنت ذكية ولديها استعداد للتعلم ، وما

أقدرش أقوم بالبيت وحدي ، وأجرتها رخيصة .. وفي أثناء عودتـه اشتري قطعة من الشيكولاته ، فلعل قليلا من الاغراء يجدي فيما لـم يجد فيه الكثير من العنف والتهديد ..

وعندما صعد الاستاذ كمال الى الغرفة المعتمة الآن ، لمح على الضوء الخافت معركة لا تكافؤ فيها بين والد قد استحال الى وحش وطفلـة تدافع عن نفسها في صمت ، فلم تعد تصدر منها أنة واحدة ، بينمـا اضطربت الغرفة المكتظة بما فيها ، فوقعت بعض الملابس التي كانت معلقة على الحبل ، وانكفأت القلة على قاعدة النافذة ـ دون أن تنكسر ـ فاندلق منها الماء .

وعندما أفلح الاستاذ كمال في التفرقة بينهما للمرة الثانية ـ وعوضه على الله في البدلة المكوية ـ كان العرق ينضح من كل مكان في وجه عليوه الخشن الاسمر ، وكان الدم يسيل من البنت الصغيرة .. من فمها وأنفها ومن جرح في فخذها ، وقد شحب وجهها وبدا عليـه الهزال والاعياء .

وحاول الاستاذ كمال أن يلاطفها ويستدرجها في الحديث فقال لها وهو يربت على ظهرها : شوفي يا شربات ، كل واحد في الدنيا لازم يشتغل علشان يأكل عيش ، وانا باشتغل مدرس وامك بتشتغل ، وأبوك كان بيشتغل وبكره يلاقي شغل يشتغل ..

وفوجىء بالبنت تجيبه : لكن ستي ناديه بتروح المدرسة ، أنـا عاوزه أروح المدرسة ، أنا كنت بروح المدرسة .

فأجابها قائلا : أنا باشتغل مدرس ، لو جيتي معايا أعلمك جدول الضرب وأحفظك القرآن ، ثم قدم لها قطعة الشيكولاته ، لكنها رفضت أن تأخذها ، وقالت في صوتها الخافت : أصل ماليش نفس . فقال لهـا وهو ما يزال يربت على ظهرها : طيب يالله معايا ، وكفايـة .. وقاطعه أبوها بقوله : ان ما رجعتيش مع البيه ، ما تفكريش انك تبيتي الليلة دي

هنا ، أبيتك تحت ترامواي ، في ترعة ••

ونظر كل منهما الى الآخر ليرى مدى وقع اغرائه أو تهديده ، واذا بها تردد ، ونظرة الرعب لا تفارقها : مش عاوزة أشتغل في بيوت ••

فجأة برقت في ذهن الاستاذ كمال محاولة اخيرة ، فاتجه نحوها وهو يقول : مادام انت زعلانه ومش عاوزة تيجي معايا ، خلاص على كيفك ، بس الفستان دم والهدوم اللي تحته ، والشبشب كمان بتوعنا ، اخلعيهم •• انا اعمل ايه ببنت زيك ••؟

وبدا على الصبية أنها تعتقد أن سيدها غير جاد فيما يقول ، فلا يمكن له أن ينفذ ما يقول ، ولن يسمح لها أبوها ان تخلع ملابسها وتقف عارية ، فليس لها غيار آخر غير ذاك الذي تركته بمنزل سيدتها ، لكنها وجدت أباها نفسه يتحمس للفكرة ويؤيدها ويهددها بها ، ورأت صلعة سيدها كمال تقترب منها ويده تمتد فعلا لتخلع ثيابها ، وهي تتراجع مذعورة الى الحائط ، وقد أحست بساقيها الرفيعتين تتعريان وتنكشفان للانظار ••

كانت قد مضت اكثر من ساعتين••والبنت قد تعبت أعصابها،وأعصابها يثيرها القيظ والعرق ، والعرق يسيل على جسدها ، وجسدها مرهق •• سيعرونه تماما بعد لحظات ، وصلعة سيدها تزداد اقترابا ، وكف أبيها الغليظة أكثر اقترابا ، والحبل انقطع تماما والملابس وقعت على الارض والقلة وقعت في الشباك ، وجدران الحجرة تقع عليها ، وأمها لم تأت بعد •• لو أتت ستحميها من أبيها ومن سيدها ومن الهانم ومن ستها الصغيرة • لكنها لا تأتي ، وسيعرونها •• وسيدتها بمصر الجديدة نقعت ثوبها في الجاز ثلاثة أيام ، والحشرات ماتت ، من شعرها ومن ثوبها ، وغسلته كما غسلت شعرها ، ووضعته مع حذائها القديم في صندوق مخصص لها ، لقد جف منذ أيام •• ولعابها جف •• أريد جرعة ماء من القلة المنكفئة ودموعها تنحدر ، وهي تبكي مستعطفة لاول مرة

وتقول : أروح معاك يا سيدي ، أروح معاك •

وكان هذا ايذانا بأن المهمة العسيرة قد كللت بالنجاح • وأخرج الاستاذ من جيبه خمسة وعشرين قرشا : حق الحلاوة اللي دفعتها للراجل اللي جابها • وابدى عليوه تمنعه أول الامر ، ثم ما لبث ان دسها في جيبه : « والشيكولاته دي لابنك جلال » •

وكان الليل قد هبط وحدة القيظ قد خفت عندما خرجت شربات مع سيدها ، وفي أثناء العودة كان الاستاذ كمال ـ مستعينا بخبرته كمدرس ـ يقص عليها قصصا عن بنات واولاد في مثل سنها حاولوا الهرب من البيوت التي يخدمون فيها فلم يصلوا أبدا الى أهلهم • فبنت داسها ترام ، وولد ضحك عليه رجل بشوارب كبيرة ، وقال له أنا أعرف مكان أهلك ، ثم أ خذه وحبسه وضربه ، وأخيرا الحقه بخدمة بيت آخر ليستولي على أجرته وهدده بذبحه ان هو ذكر الحقيقة لاحد (كيف عرف هو القصة اذن ؟) وهكذا مضى يخيفها بقصص من اختراعه وهو ينظر اليها من حين لاخر ليرى مدى تأثيره عليها ، فلا يرى ، الا قامتها القصيرة ووجهها الاسمر الشاحب وقد جمد عن التعبير •

في الصباح التالي خرجت شربات لتشتري الخبز والفول فلم تعد غير انها في هذه المرة كانت تنتعل حذاءها هي وترتدي ثوبها هي ولا شيء تحته ••

ديسمبر ١٩٦١

عملة زائفة

ازدحم أتوبيس الصباح بالركاب ، وكان المحصل يمر بينهم حتى وقف أمام أحد الركاب واخرج الحاج سيد محفظة منتفخة بالاوراق — غير المالية في الغالب — وبحث فيها عن قرش فلم يجد ، فاضطر ان يخرج الجنيه الذي معه ، ومديده ليناوله للمحصل ولكن المحصل لم يتحمس لاخذ الجنيه بل قال له في تبرم : احنا لسه في اول الوردية ، معاناش فكة .

وأحرج الراكب ، وتلفت كأنما يبحث بين الراكبين عمن يفك له الجنيه ، بينما استأنف المحصل حديثه ليقطع على الرجل تردده : معاك فكة ولا تنزل تأخذ غيره ؟ كيف يركب (غيره) ، وهذه فترة الصباح التي يزدحم فيها الركاب ؟ وكان الحاج سيد تاجرا في طريقه الى متجره حيث يبيع أصناف الخردوات ، ولا يستطيع أن يتأخر على زبائنه .

ووقف الاتوبيس على المحطة التالية ، بينما مد راكب آخر يده الى المحصل ليناوله تذكرة وفجأة دخل بائع ينادي على صحف الصباح ، ومع آن تاجر الخردوات لم يكن من هواة الصحف الا أنه فكر أن يشتري احداها املا في ان يجد فكة لدى البائع ويحل بذلك مشكلته ، وسرعان ما نادى على البائع وطلب منه احدى الصحف وباقي جنيه ، ووجد أنها فرجت .. فقد اخرج البائع من احد جيوبه ورقة من ذات الخمسين قرشا

واخرج من جيب اخر اربع قطع فضية من ذات القروش العشرة، كما اعطاه بقية القروش العشرة الاخيرة • وسلم التاجر الجنيه الى البائع ثم انصرف يعيد عد الفكة ويفحص القطع الفضية ، بريبة التاجر الذي كثيرا ما يتعرض لاولاد الحرام •

وفجأة لمح قطعة تختلف عن الباقيات ، كان واضحا انها اثقل من الاخريات ، كما كانت معضوضة من طرفها الدائري ، وايقن الرجل انها مزيفة ، وتلفت ليعيد القطعة الى بائع الصحف ، ولكنه لم يجده كأنه فص ملح ذاب ، وبدلا منه وجد أمامه المحصل ، فاخفى القروش الفكة بسرعة في جيبه ومد يده نحوه يعطيه العملة المزيفة •

وأحس الحاج سيد أنه يقوم بمغامرة صغيرة ، فقد يكتشف المحصل زيف القطعة ويردها اليه ••• وفي هذه الحالة لن يحدث شيء خطير ، سيعطيه غيرها ويلعن بصوت مرتفع ابن الحرام الذي غشه واعطاها له • ولكن الزحام كان قد اشتد على المحصل ولم تعد لديه فرصة ليفحص القطعة فقد أخذها منه ــ بنفس الحركة الآلية ــ ورمى بها في قاع حقيبته المتسعة وأعطاه تذكرته وسلم له الباقي •

ورغم ذلك فان الحاج سيد لم يطمئن اطمئنانا تاما ، كان لديه احساس بالجريمة الصغيرة التي اقترفها ، وان كان يبرر فعلته بأنه رد جريمة بجريمة • كان يحس آن المحصل سيكتشف القطعة المزيفة في أية لحظة ثم يفحص الركاب بعينيه كأنما ليتذكر شيئا حتى تتسمر عيناه عليه ويردها له وهو يسب بدوره ــ وبصوت مرتفع ايضا ــ اولاد الحرام •

وفكر الحاج سيد أن يدعي أن هذه القطعة ليست قطعته ، وأن يتأهب لمعركة من أمثال هذه المعارك التي تحدث في السيارات العامة من حين لآخر والتي لم يكن الحاج سيد طرفا فيها في يوم من الايام •

ويبدو ان النقود تكاثرت لدى المحصل ، فقد احس الحاج سيد ان

راكبا وراءه أعطى ورقة نقدية كبيرة للمحصل ، وان المحصل يعد لـــه الباقي ، ولا شك ان القطعة المزيفة ستكون من نصيب هــذا الراكب وقد يفحصها ويكشف حقيقتها فيردها الى المحصل وهنا يتضح كل شيء ...

واحسن الحاج سيد بظهره ـ لا بعينيه ـ بالراكب وهو يفحص النقود قطعة قطعة ومع ذلك فلم يحدث شيء .. اذن فما تزال القطعــة الزائفة في قاع حقيبة المحصل لتخرج في أية لحظة معلنة اتهامها له ..

وفكر الحاج سيد أن يغادر الاتوبيس ، فهذه افضل وسيلة للقضاء على هذه الوسوسة التي تقلقه .. ومع ذلك فان مشكلة الركوب فــي اتوبيس مزدحم آخر كانت تمنعه من تنفيذ فكرته . لهذا ظل في مقعده وهو يتصنع قراءة الصحيفة التي اضطر الى شرائها منتظرا وقوع الكارثة في أية لحظة .

وأخيرا وصل الاتوبيس الى المحطة التي يقصدها الحاج سيد ، فشق طريقه بين المزدحمين ونزل وهو لا يصدق تخلصه بهذه السرعة والمهارة من القطعة المزيفة (صحيح تاجر ابن تاجر) . ومع ذلك فعندما هبط وجد أنه تسرع في مغادرة الاتوبيس وانه هبط في محطة سابقة على محطته . وعلل ذلك بزحمة الاتوبيس بحيث تعذر عليه أن يتبين بالضبط المكان الــذي كان يجب ان يهبط فيه .

أما العملة الزائفة فاستقرت طوال مدة « الوردية » في حقيبة عباس المحصل ، وعندما ذهب في آخر الوردية ليورد تحصيله ، اكتشف محصل الشركة زيف القطعة وردها الى عباس . وكان عباس قد سبق ان شرب مثل هذا المقلب ، ولكن في مبالغ لا تزيد على الشلن اما قطعة قروش من ذات العشرة مرة واحدة فكانت مقلبا قاسيا عليه .. وكـان عليــه ان يدفع المبلغ من جيبه ، وان يتحمل هذه الغرامة نتيجة غفلته وعدم دقته ، فاستردها وهو يستعين بالله من اولاد الحرام ويسب زحمة العمل والشركة صاحبة العمل ، ثم خفف من وقع المسألة عليه حين أعلن في نفسه انها محنة

من الله عليه أن يتقبلها .

وكان من عادة عباس ألا يجعل في جيبه الخاص الا النقود الضرورية له ، يأخذها من زوجته يوما بعد يوم لانه يخشى ان ينفق أي مبلغ يحمله في جيبه ، مع أنه لا يشتري شيئا خاصا لنفسه أو لمزاجه ، فقد كان عباس رجلا يستحرم حتى مجرد تدخين السجائر ، فاولاده وبيته اولى بالنقود القليلة التي يحصل عليها . ومع ذلك فقد كانت النقود تتبخر من يده وهو يقول ان المنزل كالبلاعة او الارض الجافة تتشرب اي مبلغ . ولهذا لم يأخذ معه هذا الصباح الا ما يكفيه لشراء نصف كيلو من اللحم وكيلو من البلح في طريق عودته الى بيته ، وقد وجد نفسه الان مضطرا ان يؤجل ذلك كله .. وعندما وضع يده في جيبه ليخرج منديله ويجفف عرقه لمس القطعة الملعونة الزائفة وهي ترقد في جيبه تنتظر أن يتقرر مصيرها .

وقد فكر عباس لحظة ان يلقى بها في مكان لا تصل اليه يد حتى لا يغرى وجودها احدا على ارتكاب هذه الخطيئة الصغيرة، خطيئة التخلص منها على حساب الغير ، وكأنها في انتقالها من يد الى يد تدين اكبر عدد من الناس في المشاركة في تزييفها . ومضى عباس يبحث ــ وهو يقاوم نفسه ــ عن ذلك المكان الذي لا تصل اليه اليد ..

ثم خطر له خاطر ... ان يحتفظ بها لطفله محمود كي يلعب بها ، فما أشد ولع محمود بقطع النقود ، ويمكن لأمه ان تعلقها له في رقبته كحلية يتزين بها .. وفجأة اقترب منه شحاذ يطلب احسانا ، وأضاءت الفكرة في رأس عباس .. وتفحص الشحاذ بعينيه وأحس الشحاذ بخبرته أن المحسن يتردد وأنه في حاجة الى شيء من استدرار العطف كي يحسم المحسن أمره ويهبه أكبر مبلغ ممكن .. فازداد صوته تحشرجا وازداد مظهره ذلة وهو يخلع على محسنه ما يملؤه غرورا وعظمة ، ووجد عباس في هذا الشحاذ خلاصا له من ورطته فمد يده اليه بالقطعة كاملة وحملق

الشحاذ لا يصدق عينيه ، بينما انفلت عباس مرتاح النفس فقد أراح واستراح .

وظن الشحاذ اولا ان المحصل ينذر نذرا فكان له تصيب فيه ، أو لعل هذا المحصل قد ارتكب اليوم خطيئة كبرى لا تكفر عنها الا عشرة قروش كاملة .. ولكن تفكير الشحاذ ودهشته وفرحته لم تطل ، فما كادت الطريق تهدا وما كاد يشح المحسنون حتى انزوى يعد حصيلة اليوم ؛ وكانت مجموعة القروش والملاليم تتضاءل بجانب القطعة التي تحتل حيزا واضحا ، ولكنه عندما اخذ يقلبها بين يديه شعر بريبة في ثقلها ، ثم لمح العضة على طرفها الدائري فساوره الشك وان لم يتأكد من الخدعة تماما فأسرع الى اقرب دكان للسجائر يشتري منه سيجارتين ويطلب الباقي .

وكان قلب اسماعيل الشحاذ يخفق في خفوت وهو يرى البائع يفحص القطعة النقدية ثم (يرنها) بطريقة آلية على البلاطة الرخامية الممتدة أمامه فلا يسمع رنينا بل مجرد صوت مكتوم لا صدى له ، وتنبه اليها البائع ثم أخذ يقلبها فما لبث ان تكشف له الزيف وصعد ببصره في عيني زبونه الدائم اسماعيل كأنما في ارتياب وعتاب .

والواقع ان بائع السجاير قد ارتاب من أول الامر في المصدر الذي حصل منها اسماعيل على مثل هذه القطعة النقدية الكاملة ، فقلما احضر له مثلها ، بل كان الامر على عكس ذلك تماما ، فكثيرا ما كان تاجر السجائر يفك من اسماعيل القطع ذات القروش العشرة وذات العشرين قرشا ليعطيه بدلا منها قروشا وملاليم تيسر له تعامله مع الزبائن ، بينما يتخفف اسماعيل من هذه الفكة الكثيرة التي يجمدها في قطع كبيرة يسهل عليه اختزانها .

وحاول اسماعيل ان يدافع عن نفسه ، وأن يتظاهر بأنه لم يكن لديه سابق علم بزيف القطعة بل انه حاول ان يقنعه بعدم زيفها وان يشككه فيما انتهى اليه من حكم عليها . (مالك بتبص لي كده ليه .. وما هي

بترن زي الجنيه اهه) • ثم تناولها منه يتأملها كأنما فوجيء بما حدث • والبائع لا يحاول ان يداري اتهامه لاسماعيل ••

ولمعت في ذهن البائع فكرة ، فأخذ يساوم اسماعيل قائلا : البريزة دي براني براني ، لو عرفت اصرفها لك تديني كام ؟ وبدأت المساومة ، وقال اسماعيل طامعا : تأخذ منها قرشين • ورفض البائع ، فتنازل اسماعيل قائلا : طيب النص بالنص ، وانتهى الامر بأن قبل اسماعيل ان يأخذ قرشين فقط ، فهما خير من لا شيء •

وفي اليوم التالي مر السيد محمد كوسه الموظف بوزارة العدل على بائع السجائر واشترى منه علبة سجائر « هوليود » واعطاه جنيها ثم أخذ الباقي وخرج مهرولا ليودع ابنه المسافر الى اسوان لاول مرة ، ثم عرج كذلك على المحل الملاصق وهو محل الحاج سيد الخردواتي ليشتري هدية صغيرة لابنه تنفعه في غربته • اشترى جوربين ومنديلين ، وأعطى الحاج سيد خمسين قرشا واخذ الباقي ثم هرول حتى لحق بابنه على رصيف المحطة حيث قدم له ـ في محبة وفرح بالغين ـ هذه الهدية الصغيرة ثم قبله وصفر القطار واختفى الولد •

وفي الصباح اكتشف السيد محمد كوسه معه « بريزة براني » ، وكان ذلك حين أخرج هذه القطعة ليعطيها للخادم الصغير يشتري بها ما تحتاج اليه الاسرة من خبز لهذا النهار فانزلقت القطعة على بلاط الغرفة ولوحظ بوضوح صوتها المكتوم وهي تتدحرج ثم العضة الجانبية التي تفضحها وتبدل الشك باليقين •

وتحمس السيد محمد كوسه للامر وتحدث بصوت مرتفع عن خداع الناس وغشهم وفساد المجتمع كلما تقدم الزمن • وكان رجلا عمليا ،فأعمل ذهنه بسرعة محاولا ان يتتبع مصدر هذه القطعة ، واين كان ذلك الرجل الذي جرؤ على ان يستلخمه واخذ يتراجع بذاكرته الى امس حتى وصل الى الحاج سيد ، وظهر الامتعاض على وجه السيد محمد وكان مصدر

الامتعاض ان هذا التاجر يزعم انه حج ثلاث مرات ومع ذلك فانه يغش زبائنه ، وصمم ان يعطيه درسا لا ينساه •

وتهيأ السيد محمد كوسه للخروج الى عمله وقد وضع القطعة الزائفة في مكان واضح من جيبه ثم اتجه الى دكان الحاج سيد •

وكان الحاج سيد قد فتح لتوه دكانه حين دخل عليه السيد محمد كوسه متجهم الوجه نافر الاعصاب ، لا سلام ولا تحية مما ادهش الحاج سيد وهو يقول « يا فتاح يا عليم » وسرعان ما أخرج السيد محمد القطعة المزيفة ووضعها على البنك أمام الحاج وهو يقول له : مش عيب تديني البريزة دي امبارح ، ده انت رجل شايب وحاج •

ودهش الحاج سيد ، وأقسم يمينا انه لم يعطه اية قطع معدنية امس ، بل رد له بقية الخمسين قرشا ورقة واحدة من ذات القروش العشرة وبضعة قروش أخرى • وتهور كوسه قائلا :

ــ وبتكدب كمان يا حاج ، عيب خليت ايه للناس التانيين •

وثار الحاج بدوره واقسم بالطلاق أنه ليس صاحب هذه القطعة حتى اضطر كوسه ان يتراجع قليلا وان يراجع نفسه لعله يكون مخطئا ويكون هناك مصدر آخر محتمل •

وفجأة تذكر الحاج شيئا ــ كان غامضا اول الامر •• في زحمة الناس •• بل في زحمة الاوتوبيس •• وبائع الصحف الهارب ، والمحصل ونزوله المتعجل •• نعم انها نفس العضه الجانبية •

وفي نفس اللحظة تذكر السيد كوسه بائع السجائر ، فاعتذر للحاج عن اندفاعه واخذ يخطو مهرولا نحو بائع السجاير• وعندما اصبح على بعد خطوات من دكان الخردوات بدأ الحاج سيد يناديه متوسلا ان يعود • وتوقف السيد كوسه قليلا ثم استدار راجعا وهو يعجب لهذا التحول الذي طرأ على الحاج في صوته وفي تعبيرات وجهه •

واخذ الحاج سيد يشرح في كلمات سريعة ــ تقطعها قهقهة صغيرة

من حين لآخر قصته القديمة مع هذه القطعة النقدية •• بينما أخذ السيد كوسه يعتذر بكلمات رقيقة عن عنف كلماته : طيب يمكن دي مش نفس البريزة •• لا لا انا عارفها أهي نفس العضه • وانتهى الامر الى تبـادل كلمات الاعتذار الرقيقة ، بل أخذ كل منهما يصر على أن تظل القطعـة معه • ولكن الحاج سيد كان اكثر تصميما ، كما كان السيد محمد كوسه اقل ميلا الى التشبث برأيه ، ولهذا تركها للحاج سيد وأخذ غيرها •

وفي اليوم التالي مر السيد كوسه على دكان الحاج سيد ، فوجده دق البريزة بمسمار كبير في الجزء الخشبي من البنك الممتد في المحل •• وعندما رآه الحاج يحملق في البريزة شرح له الامر : ده علشان النـاس تأخذ بالها من الفلوس البراني •

فابتسم السيد محمد كوسه ثم حمل ما اشتراه ومضى في طريقه الى عمله بوزارة •• العدل •

أبريل ١٩٥٨

السمسار

كان يسير في شارع ٢٦ يوليو ، أزحم شوارع القاهرة ، وكان يرتدي بنطلونا اصفر يضيق عند القدمين وبه اكثر من بقعة ، وقميصا كان له لون ازرق يوما ما ، وينتعل شبشبا متآكلا يحدث فرقعة اثناء خطوه ، وهو يجول بعينيه في الطريق يبحث وسط الزحمة عن شخص ما .

وكان اليوم من أيام الصيف القائظ ، فقد كشفت الفتيات عن اكبر جزء من اجسامهن البضة حتى استحال نداء الباعة المتجولين الى غزل ، فكلما مرت واحدة منهن صاح بائع اللعب مغنيا « العرايس .. العرايس .. » وصاح بائع العرقسوس : « شربات يا شربات » .

اما هو فكان يسير وبيده ورقة من اوراق اليانصيب وكشف بالارقام الرابحة ، وكان ـ كما يبدو من هيئته ـ لا يعرف القراءة ، ذلك المفتاح الذي يقال له به انت اليوم محظوظ او انك ككل يوم منحوس . لهذا كان عليه ان يستعين بفريق من هؤلاء الذين لا يتميزون عنه بملابسهم واهتماماتهم فحسب ، بل وبأنهم يعيشون في عالم القراءة الذي حرم منه . ولم يكن يريد ان يسأل أي انسان ، فالنساء مثلا سينفرن منه ، وهناك من الرجال من هم اكثرانشغالا بأنفسهم من ان يجيبوا له طلبا ، لهذا كان عليه ان يتخير ضالته .

وفجأة استقر بصره على الاستاذ خليل ، والاستاذ خليل شاب قصير

ممتلىء يرتدي بنطلونا اسمر وقميصا فضفاضا ابيض ، يدخن سيجـارة ويسير على مهل يحدق في الرائحات والغاديات ، فقد تخرج مـن الجامعة حديثا وعين مدرسا باحدى مدارس القاهرة ، لم يقاس بعد اعباء الوظيفة ولا متاعب المسئولية ، يسير الآن في هذا الطريق المزدحم قبل ان يبـدأ ميعاد حصته ليستمتع بأول مرتب قبضه ، وتتبعه الرجل يريد ان تسنـح الفرصة للتحدث معه ، وقد اتيحت له الفرصة اخيرا حين رآه ينجه نحـو واجهة احد المحال التجارية يصعد فيها البصر ، وعندما استقر نظر الاستاذ خليل على حذاء اعجبه أحس بكتلة بشرية الى جانبه ، فالتفت فاذا بـه امام شخص رث الهيئة يقترب منه وبيده مـا يشبه ورقتين مـن اوراق اليانصيب ، فحدس انه بائع يبغي التخلص منهما ، لكن الرجـل ازداد اقترابا منه بغير ان يعلن عن بضاعته ، وعندما خطا الى جانبه تماما سأله قائلا : تسمح يا بك ؟ ومد اليه يده بالورقتين طالبا منه ان يكشف لـه في احداهما عن رقمه بالاخرى ، وقد تطوع الاستاذ خليل للقيام بذلـك العمل النبيل ، واحس بأنه يعرف شيئا لا يعرفه آخرون ــ ولعل هـذا هو سبب وظيفته كمدرس ــ وجذب من سيجارته نفسا ثم نفخ الدخان امامه وقرأ رقم الورقة واخذ يقرأ ارقام الكشف ، وترك المئات فالآلاف فعشرات الآلاف ، ولم يكن الرقم من بينها ، وهم بأن يرد الورقة الـى الرجل ويعلن له النتيجة المؤسفة ، لولا ان وقعت عيناه فجأة على الرقـم الاول ، وكان قد اهمل ملاحظته تماما ، بل انه في الواقع لم يكشف الا على الارقام التي تربح كل منها جنيها مصريا واحدا ، كأنما هذا الرجـل ــ بتلك الملابس وبجهله القراءة والكتابة ــ ليس له ان يربح الا جنيها
اذا حقق له ان يربح على الاطلاق ، [illegible] ان الرقم
الاول الذي يربح مائتي جنيه هو نفس رقم ورقة اليانصيب ، لم يقرأ الرقـم كامـلا ، بـل قارن بين ترتيب الارقـام منفردة في كـل مـن الكشف والورقـــة فوجدهـــا واحـدة ، ونظـر الـى الرجـــل بفرح واخلاص يهنئه وقـــال للرجـل بصداقـة « مبروك يـا عـم ،

كسبت البريمو ، ميتين جنيه » •

وكان الاستاذ خليل يحس ــ وهو يعلن هذا النبأ ــ بلون من الفخر ويتفرس في الطريق حوله لعل أحدا يشهد له هذا الموقف العظيم ، وكأنما هو الذي سيهب هذه الجنيهات ، وكان الرجل يقف الآن أمامه محدقـا فيه ثم يصيح في لهجة شبه آلية ••• « انت متأكد يا استاذ ، انت متأكد ، شكرا ،شكرا » ثم اختفى عنه وكأنما يعدو ، والاستاذ خليل ينظر ويتحسر لانه لم يفكر في الحصول على ثروة من هذا الطريق ، ثم ما لبث أن واصل سيره وهو يحلم بانه كسب مثل هذا المبلغ فاشترى لنفسه بذلة وحـذاء جديدين واستطاع ان يقضي ليلة حمراء مع احدى هؤلاء الفتيات اللائي يسرن امامه ناعمات طريات شهيات ، لكنه ما لبث ان تذكر ان امه واخوته احوج ما يكونون الى مثل هذا المبلغ • وفجأة تذكر ان ميعاد حصتـه اقترب فمضى يبحث عن أقرب وسيلة للمواصلات تسلمه الى مدرسته •

اما الرجل فما لبث ان ابطأ عندما وجد أنه قد ابتعد ابتعادا كافيـا عن هذا الاستاذ ، وعاد يتفرس في وجوه القوم من جديد وفي أزيـائهم وحركاتهم ، وما لبث بصره أن وقع على رجل يوحي شعره الاشيب بانه أكبر سنا من حقيقته •

وكان الدكتور رؤوف يسير وسط الزحمة لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، يحاول ان يتفادى بقدر الامكان الاصطدام بالسائرين وهم يحدقون في الواجهات او في الباعة المتجولين ، او في العابرين والعابرات ، فقد كـان مشغولا عن ذلك جميعه بشيء واحد لا علاقة له بمهنته ، فقد اقبل ليغير قماشا كان قد اشتراه لزوجته امس لتفصله ثوبا في عيد ميلادها ولكنهـا اعترضت على لونه ، فأقبل الآن في وقت راحته مـا بين عمله الحكومي وعيادته ، وقبل ان تقفل المحال ابوابها ظهرا عساه ينجح في تغير هديتـه وفجأة وجد نفسه امام شخص رث الهيئة بيده ما يشبـه بقايـا اوراق اليانصيب ، وقد كان الدكتور رؤوف من مدمني شراء هذه الاوراق في

يوم من الايام ولكنه اصبح الان اكثر انشغالا من ان يهتم بها ، فحاول ان يتفاداه لكن الرجل اصر على اعتراض طريقه بكل جسمه وهو يمد يده بالورقتين ويصيح : تسمح تقرأ لي الورقة دي ؟ ولم يكن لدى الطبيب وقت ليضيعه ، لذلك اخذ الورقة والكشف في عصبية من الرجل ونظر سريعا هنا ونظر سريعا هناك بغير ان يرى شيئا على وجه التمام ثم قال للرجل فيما يشبهاللهجة الآمرة « غير رابحة » وهم بأن ينصرف لولا ان تشبث به الرجل مرة اخرى وقال « لكن شخصا آخر قال لي انها رابحة واحب ان اتأكد من كلامه » .

ونظر الطبيب من جديد الى كشف الارقام الرابحة يفحصها بعناية هذه المرة ، وما أن وقع بصره على الرقم الاول حتى صاح بغير ان يقصد .. « انتكسبت النمرة الاولى . ميتين جنيه مبروك » وهكذا تغير سلوك الطبيب نحو الرجل فبعد ان كان يحس انه بازاء متسول أو شخص أمي بدأ يحس انه ازاء شخص يملك مائتين من الجنيهات ، ومعنى ذلك ان هذا الرجليستطيع ان يغير على الاقل من هيئته خلال يوم او يومين ويرتدي مثله تماما ثم يتميز عليه بألا تكون له زوجة مثل زوجه درية التي تنتقد كل ما يشتريه حتى لو كان هدية لها . وقال الرجل في شبه فرح « أشكرك ، أشكرك » ثم اختفى عنه ، بينما كان الطبيب يفكر في حظه السيء مع ورق اليانصيب ، فمنذ عشرين عاما وهو يشتري منه بانتظام ولقد ربح فعلا في أوائل حياته جنيها واحدا ويومها عاد الى عروسه درية فأنبته لانه لم يشترك في ياناصيب تكون جائزته الصغرى اكثر من جنيه واحد .

اما الرجل فقد رأى أن يحاول مرة ثالثة ، وقد عثر على ضالته اخيرا في شخص فؤاد افندي السمسار ، وهو سمسار متخصص في المنازل واراضي البناء ، يتوسط بين البائع والمشتري ويكسب من هذا وذاك . وكان يجلس الآن في مقهى بور فؤاد ساهما مهموما لانه لم يستطع ان

يقنع احدهم بشراء منزل قديم بشبرا ، ولو كانت الصفقة قد تمت لربح من البائع والشاري مائتي جنيه على الاقل لكن الزبون اعتبر المبلغ مرتفعا جدا وعرض مبلغا لا يرضى فؤاد افندي ولا صاحب المنزل ، ولم تجـد الحيل في اقناع الرجل بأن الصفقة رابحة ولا نفعت طرق فؤاد افندي في تعداد مزايا المنزل وفوائده ، والواقـع ان فؤاد افندي كان في حاجة الى هذه الجنيهات ليكمل بها مبلغا يشتري به لحسابه الخاص منزلا جديدا أعجبه في حي العباسية • وبينما هو مهموم يفكر في ذلك جميعه أقبل عليه رجل ماشك لحظة في أنه متسول جاء ليزيده تضايقا ، وسأله المتسول أولا ان كان من الممكن أن يشرب كوب المـاء الموضوع أمامه على المنضدة ، فسمح له فؤاد افندي ، وهو ما يزال يحسب ذلـك حيلة يتلوها محاولة ابتزاز قرش أو قرشين منه • لكنـه سمعه يسأله في أدب جم أن يكشف له عن رقمه وقدم له ورقة اليانصيب والكشف ، ولم يكن لفؤاد افندي خبرة بهذا اللون من المعاملات ، فوضع نظارته وبذلك أخـذ وجهه مظهرا أكثر جدية • ثم مضى يقرأ الارقـام الرابحة ، ووقعت عيناه أول ما وقعتا على الرقم الاول وقارنه برقم الورقة ، وحسب أنه مخطىء ، ولكنه عندما تحقق من الامر وجـد أنه الرقم الذي يربـح حقا مائتي جنيه ، وهم أن يصارحه بالحقيقة ، ونظر الى قميصه الباهت وثيابه الممزقة وشبشبه وقال لنفسه ، « ماذا يفعل هذا الرجل بكل هذه الجنيهات ، لقد فرجت في وجهي أنا » • وأراد أن يمهد الطريق أمامه فسأل الرجل في تخابث « ألم يكشف لك أحد عن هذا الرقم » ؟ وأجاب الرجل في استنكار « أبدا » وسرعان ما أسعفت فؤاد افندي بديهته وتجمعت لديه كل قواه العملية حينما يحاول أن يعقد احدى الصفقات، وكأنما يحاول أن يعوض ما أصابه من خسارة منذ دقائق• فنظر الى الرجل بتمعن وقال له «اسمع يارجل ، نمرتك رابحة، تعرف كم» ؟ وكأنما بدت على الرجل علامات الغبطة وهو يسأل : كم يا سعادة البك ؟ ربنا يخليك • وقال السمسار «خمسة جنيهات» • وكان مستعدا للتراجع

والتظاهر بأنه كان يداعبه لو تبين أن الرجل يشك في قوله ، ولكن الرجل لم يظهر الا فرحه. فتشجع السمسار وواصل خطته التي رتبها بسرعة في عقله فقال له «انت تعرف من أين تصرفها ؟» وأجاب الرجل في شبه بلاهة : والله أبدا ، لم يسبق لي هذا الحظ .

ـ اذن ما رأيك في أن تأخذ أنت ثلاثة جنيهات ، ومصلحة الضرائب ستأخذ خمسة وعشرين في المائة أي جنيها وربعا وتترك لي أنت خمسة وسبعين قرشا لانني أنا الذي أخبرتك أولا ثم لأني سأتعب نفسي لصرفها؟

ورأى فؤاد افندي أن الرجل يمسك بالورقة يريد أن يستعيدها فرأى أن يتساهل قليلا ويظل في الوقت نفسه متمسكا بأخذ شيء من الجنيهات الخمسة حتى لا تنكشف حيلته .

وظلا يتساومان حتى أخرج فؤاد افندي ثلاثة جنيهات وأربعين قرشا أعطاها للرجل وهو لا يكاد يصدق انتصاره وربحه هذه الجنيهات كلها بمثل هذه السهولة التي لا يصادفها في صفقاته كسمسار ، وتعجب كيف أنه لم يدخل اليانصيب في حياته كمصدر من مصادر أرباحه المحتملة .

وما اختفى الرجل عن عينيه حتى اختفى هو بدوره عن المقهى لئلا يكتشف الرجل الحيلة بوسيلة ما ويعود ليمسك بخناقه ، وكان متعجبا من المبدأ الذي خطه لنفسه طوال حياته ، ذلك ألا يشتري ورقة يانصيب زاعما أن هذا هو النصب الذي لا يجب أن يشارك فيه سواء كضحية في حالة الخسارة أو كمحتال في حالة المكسب ، حتى أن كلمة يانصيب اقترنت بذهنه موسيقيا بكلمة نصب ، ولهذا فانه لم يشتر في حياته من هذه الاوراق الا مرتين خسر في كلتيهما ومن يومها لم يعد الى شراء شيء منها ، وامتلأ قلبه بالندم على هذا المبدأ الاخلاقي الذي ألزم به حياته ، وكأنما ازدادت شراهته للمال فلم يكتف بما حققه الآن من ربح سهل بل أراد أن يتحدى مبدأه ، وصمم أنيشتري اليوم ورقة يانصيب .

وبعد نصف ساعة كان فؤاد افندي أمام متعهد بيع أوراق اليانصيب

يقدم له الورقة الرابحة ، وقارنها المتعهد بكشف لديه ثم قال له :

ــ هذا الرقم لا يربح شيئا يا أستاذ .

وضحك السمسار في طمأنينة وقال :

ــ أنظر في الكشف جيدا ، فقد شاهدت نسخة منه منذ نصف ساعة.

ولم يصدق فؤاد افندي أذنيه وهو يسمع المتعهد يقول :

ــ لازم نسختك يا أستاذ كانت نسخة مزيفة !

اكتوبر ١٩٥٤

العودة من المنفى

كان القطار الذي تنتهي رحلته عند هذه المدينة كل فجر قد تأخر اليوم عن موعده ساعة ونصف الساعة • ورغم هذا فقد كان ثمـة مستقبلون قلائل مبعثرون في فناء المحطة ••• كانت المدينة قد أمضت ليلة عاصفة ، فظل الزئير يتعالى طوال الليل ، والناس يغفون حينا ثم يصحون مجفلين ليسمعوا خليطا من أصوات المطر وعويل الريح وصمت الظلام • وكأنما كانت هناك أحطاب تتكسر ومواء قطط ونباح كلاب لا ينقطع، ووقع أرجل لحيوانات غريبة تمر في كل هزيع •

وكان صوت القطار بعجلاته وصفيره وهو يدخل المدينة من ضواحيها الشمالية قد نبه الناس الى مجيء الفجر •• أما المسافرون في القطار فكانوا يحسون أثناء رحلتهـم بأنهم غرباء ، وفي هـذا الاحساس فقط كانوا يتشاركون • لكن عندما أخذ القطار يهدأ وهو يقترب من المحط أخـذ احساسهم بهذه الغربة يتلاشى مخلفا وراءه خطا غامضا في نفوسهم من الاحداث والذكريات • لكن واحدا منهم كان ــ بعكسهم جميعا ــ يزداد احساسه بالغربة والوحدة • وحين وصل القطار الى المحط كان المطر قد انقطع عن المدينة ، لكن الغيوم الثقيلـة لا تزال تجثـم فوقها • فنزل المسافرون من القطار واختلطوا بمستقبليهم ثم تبعثروا هنا وهناك، وسرعان ما ابتلعهم الصمت • فعاد المحط مقفرا كالمدينة وطرقها •

ووجد الغريب نفسه واقفا وحده ، بعدما كان يرقب الناس منذ لحظات وهم يختفون عن عينيه مع ابنة أو صديق أو زوج .. حين أقترب منه حمال . لكن الحمال استمر في سيره لانه لم يجد مع الغريب ما يمكن حمله . وأحس الرجل بالبرد فألصق معطفه الاسود الثقيل بجسده والهواء يعبث بشعره الأشيب الغزير .. ولم يكن يعرف الى أين يتجه .

ومد يده الى جيبه الداخلي ، فأخرج صورة يتأملها كأنما ليسترشد بها . كانت له ولأسرته حين كان لا يزال طفلا في نحو السابعة أو الثامنة .. منذ أربعين عاما. وعاد يتأمل الصورة ودقائقها مستمتعا بها كأنما لأول مرة. ها هو في المقدمة جالسا على ركبتي أمه . كان يبتسم للعدسة وقد لف ذراعه اليمنى حول ابط أمه ، أما ذراعه الأخرى فكأنما كانت تعبث بالفراغ أمام وجهه . وكان يرتدي فوق رأسه قبعة ملونة بخطوط الطيف كانت قد أهدتها اليه أخته نادية . وها هي ذي أمه . لكم بكت من أجله قبل أن يفارقها وبعد ما فارقها ؟ وها هو ذا أبوه . يبتسم أيضا للعدسة وقد جلس على المقعد الى جوار أمه في اعتدال ووضع يدا على يد أمام ركبتيه . وهذه أخته نادية تقف من خلفهم بعينيها المشرقتين ذات الأهداب الناعسة الطويلة ، وثمة أطراف من المنزل والنخيل المتجمع أمامه تبدو خلفهم في الصورة. وتصاعد من أعماق روحه حنين جارف، فوضع الصورة في مخبئها وترك فناء المحطة .

ولم يكن ثمة قطار ولا محطة بالمدينة عندما غادرها آخر مرة منذ أكثر من عشرين عاما ... وكان عليه أن يسأل الآن عن مكان النهر علـه يسترشد به الى منزله القديم ، فاندفع يسير في الطرقات ، لكن دون أن يقابل أحدا ، كأنما هجر الأحياء المدينة لولا أصوات بشرية تسمع مـن حين لآخر خلف تلك النافذة أو من خلال هذا الباب . وكان يرى أبنية جديدة وأخرى قد ارتفعت ، وشوارع مرصوفة وحدائق وخمائل ... كل هذا كان جديدا عليه وجميلا أيضا . لكنه كان مشفقا أن يكون منزله

قد ضاع بين هذا الجمال الجديد • وكلما سار يرقب بقايا الرياح والامطار العالقة بالمنازل والأشجار الممتدة على أرض الطريق ، أحس أن هـذه ليست مدينته أبدا ، وان معالم بيته قد ضاعت بين الرائحة العنيفة الجديدة المنبعثة في كل حي وعند كل منحنى •

وبدأ الناس يخرجون من منازلهم ملتفين في معاطفهم الثقيلة وعباءاتهم السوداء أو الرمادية يتجهون الى حيث لا يدري • وكلما فكر أن يقترب من واحد منهم يسأله عن الطريق الى بيته أحس بالخوف والخجل • فسار لعله يستطيع أن يخلق الطريق الى بيته •

ولقد استطاع آن يتعرف على مكان النهر مسترشدا بالضباب المنبعث منه ، فأسرع بخطواته نحوه ، مشفقا الا يؤدي به الى آمه وأبيه وأختـه نادية • وتذكر الليالي الدافئة التي طالما أمضاها معهم حول النار •

وأخيرا وصل الى النهر ، كان الشاطىء الآن قد رصف بالحجارة ولم يعد ثمة قارب واحد فقط ينقل القوم من شاطىء الى آخر ، بل أصبح ثمة ساحـل ترسو عليه مئات السفن المحملة ، وقـد امتدت أمامها العربات والمخازن والموازن والعمال يتحركون هنا وهناك ، فرفع الغريب عينيه نحو السماء ، حيث رأى قوس قزح يتخلل الغيوم ، وتذكر ما قصه عليه أبوه ذات يوم عن الميثاق القائم بين الله والانسان ، فبعد ما أغرق الله الأرض بالطوفان وعد نوحا أنه لن يعود ليغرق الارض أبدا من جديد • وهذا هو ميثاقه : قوس قزح ، وتبسم الغريب وهو يذكر أن الارض لن يعود يغرقها طوفان ••• أبدا ، أبدا ، لن يعود يغرقها طوفان • وجعل يردد الألفاظ بين شفتيه كأنما كي يتأكد منها ويستمتع بها ، ثم تذكر منفاه ، حيث الجليد يغطي الارض معظم أيام العام ، وحيث كان يكاد يعيش مـا بين غسق وليل وشفق ، وجعل الآن يتتبع الالوان الكثيرة وتدرجها في قوس قزح ، من الأحمر ــ ذلك اللون الذي تشهده كل جريمة وكل تضحية وكل حب يعطي ولا يأخذ ــ حتى البنفسجي ، ذلك اللون السابع

الهادىء .. كان منفاه مزدحما بمثل هذه الالوان في كثير من أيام العام ، وكان الآن قد عاد الى مدينته حيث كان يرجو أن يرى فيها هذه الألوان ممتزجة معا لتعود لونا واحدا أبيض وهاجا ينبعث مع الفجر .

ولكن الغريب بلغ الضحى وهو يسير بمحاذاة النهر نحو الجنوب تملأ نفسه خيالات عجيبة ، ودهشة وتوقع ، حتى رأى أول دليل على ماضيه ... كان ثمة شجرة نخيل طويلة يكاد يغيب الآن سعفها في الضباب الصاعد من النهر ، والى جانبها شجرة المشمش جرداء كعادتها الا من بضع أزهار بيضاء ، فاقترب منها في فرح خافت وهز أغصانها حتى تساقطت فوقه قطرات الماء العالقة بها ... ثم مضى أكثر اطمئنانا وأكثر اشفاقا ، يوشك أن يحس بأن هاتين النبتتين غريبتان في هذا المكان مثله . فقد تلاشت من حولهما كل المنازل الصغيرة وحل طريق طويل عريض مرصوف ينتهي بدرجات تؤدي الى النهر . وتلاشت هذه الشجيرات التي كانت مبعثرة في غير كلفة ، وحل خط طويل مستقيم من الشجر المنتظم المتشابه. وكأنما كل شيء كان — كذكرياته — جميلا ومحرما عليه .

وكان يرى في المياه المتجمعة في الطريق من حين لآخر ألوان الطيف من جديد ، وهو يسير ... يسير بلا انقطاع ، حتى وصل الى حيث يمتد في النهر لسان من الارض. وهنا أخذ يبتعد عن النهر متجها نحو الشرق في بطء وخوف شديدين . فهنا كان بيته — أين الدجاج الذي كان يلعب معه ؟ أين النخيل ؟ أين أمه ، أين أبوه ، أين ناديه ؟ أين بيته ... أين؟ لكن الصبية ها هم كعادتهم لا يزالون يلعبون . فاقترب منهم حتى رآه الاطفال . لم يكونوا يعرفونه ولم يكن يعرفهم . وأحس بمزيج من الاطمئنان والقلق وهو يتحدث اليهم ، وخيبة هائلة وهو يسمعهم يجيبونه أنهم لا يعرفون اسما واحدا أبدا ، كان كل شيء جديدا وجميلا وغريبا حتى أحس اغراء ذات لحظة أن يسألهم عن أصحاب أسماء جديدة وجميلة وغريبة ، لكن عاوده احساس الخوف . فسألهم في هدوء : أين الطريق

اذن الى المقابر يا أعزائي ؟ فأشاروا له نحوها •••

وعند حلول الغسق كان قد اقترب من دغل كثيف خارج المدينة يطل على النهر وكان ماضيه وحاضره قد استحالا الى أوهام وخيالات أخذت تقفز في نفسه ، بينما العتمة تمتد على الأرض وخلال الدغل وحتى أعماق النهر • وكان نقيق الضفادع وصرير حشرات الليل قد بدأ يرتفع من قريب ومن بعيد ، بينما أخذت تتضح الأصوات المنتظمة لآلة لرفع المياه واقعة على مسيرة ميلين أو ثلاثة • وكانت الغيوم قد أخذت ترحل الآن ، ورفع عينيه نحو الشمال فرأى آلة رفع المياه وقريبا منها بضع شجرات من النخل ، ثم حول عينيه نحو الجنوب فرأى منظرا غريبا •• رأى على حافة النهر شبحا لأنسان ، ساقاه مستقيمتان متحاذيتان وطويلتان أكثر مما ينبغي وظهره منحن في قسوة حتى ليكاد رأسه يمس ركبتيه ، وذراعاه ممدودتان في استقامة حتى مياه النهر ، وكأنما يداه كانتا تبحثان عن شيء ما على سطحه أو ربما في أعماقه ثم تعبتا فاستقرتا هكذا ••• وقد ظل الشيخ البشري في هذا الوضع مدة طويلة ، طويلة جدا وهو يزداد سوادا كلما أمعن الليل في الظلام وبغير ان يتحرك ، حتى أرهق منظره الغريب • فالانحناءة كانت قاسية ، وسكونها كان أشد قسوة • وأراد الغريب أن يرتاح فأخذت الحياة تفر من الشبح شيئا فشيئا حتى تجمد فيما يشبه الشجيرة • ظن الغريب أن الاوهام والخيالات التي لا يزال يحملها معه من منفاه هي التي بعثت في هذه الشجرة ذلك الوضع العجيب من الحياة والانسانية والتألم • لكن فجأة رأى أنه لم يكن واهما ••• فقد تحرك الرأس يريد أن يرفع قامته ، لكن الشبح لم يستطع ان ينتصب • وعاد يحاول مرة اخرى ، لكن بغير جدوى ، كأنما قد تجمد في انحناءته هذه لولا رأسه الذي يتقلقل محاولا الخلاص • وهنا انطلق الشبح في زعقات أليمة رهيبة ملأت الليل ودوائره جميعا • فأطلق الغريب ساقيه للريح متجها نحو المدينة ، وزعقات الشبح المنعزل المنحني تدوي متلاحقة في أذنيه •

فثمة آلم يغرينا أن نواسي صاحبه وان نطلب الرحمة له ،لكن ثمة ألما من الهول بحيث أننا لا نحاول الا الفرار منه بأقصى ما نستطيع ـ ان استطعنا.

وفي الهزيع الاول من الليل ، كانت السماء قد صفت تماما فأمست رقيقة شفافة . وكان القمر يبدو بدرا يتصاعد نديا من الشرق فيرسم الظلال والانوار ، ويزيدها وضوحا وتحديدا او ثباتا كلما ارتفع عن الارض وابتعد عن الشرق . وكان الاطفال قد خرجوا مرة أخرى يتضاحكون ويتصايحون في ضوء القمر . حين لمحوا الغريب الذي سألهم في الضحى عن أسماء لا يعرفون أصحابها يسير بحذر في الظلال المعتمة بجوار البيوت والحظائر. وأجفل الاطفال لحظة من طريقة سيره، فقد كان يرفع رجلا في بطء ثم يضعها على الارض ليرفع الاخرى كأنما يخوض في الوحل. ولم يكونوا يستطيعون تبين معالم وجهه ، فقد كانت العتمة تخفيها حتى استحالت شيئا أسود كمعطف صاحبها . وانكمش الاطفال وكفوا عن اللعب وهم يتبعونه بنظراتهم : رأوه يقترب في حذر حيث يلتقي الظل والنور ، ثم شاهدوه يقف لحظة ، وفجأة بدأ يخلع معطفه ثم حذاءه ثم ملابسه قطعة قطعة حتى خلع سرواله أخيرا . وشاهدوه عريانا يرفع رجلا حتى اذا ما استقرت في الضوء رفع الأخرى ثم وضعها بدورها في الضوء ... واستطاع الاطفال أن يروا وجهه الآن جيدا وعينيه حيث كان يلمع بياضهما بينما اختفى منهما انسانا العين تقريبا . وشاهدوه يدفع يدا ثم يدفع وراءها الاخرى وهو يحرك قدميه ، ويسبح في ضوء القمر الناعم الندي .

وانحنى احد الاطفال نحو الارض ثم حمل قطعة من الحجر وقذف بها الغريب وهو يطارد خوفه ويصيح « المجنون ، المجنون » وانقطع صمت الاطفال فجأة واندفعوا جميعهم يقذفون الغريب العريان بالحجارة ... فانطلق يعدو في طرقات المدينة والاطفال خلفه يعدون ويقذفونه بالطوب صائحين « المجنون ، المجنون » .

اكتوبر ١٩٤٨

قصص في دقائق

ـ ١ ـ

انه ما يزال يشعر بتلك السعادة الخفية كلما قابلها ، وهي ما تزال تحس بتلك الغبطة الرقراقة كلما رأته •

ومنذ ربع قرن ، كانا قد التقيا ، حين كانت في العشرين من عمرها وحين كان هو في الرابعة والعشرين ، ومن يومها أحس أحدهما بالارتياح نحو الآخر •

ولم يجد هو في ذلك الارتياح السعيد ما يتناقض مع حبه لانسانة أخرى عقد النية على الزواج منها ، وعندما عرفت منه تلك الحقيقة ، لم تر في ذلك عقبة امام ما تضمره من تقدير له ، بل لكأنما ضاعفت تلك الحقيقة من هذه الطمأنينة العذبة التي تغمرها في وجوده •

وكان أحيانا يقصد الى لقائها ـ على غير موعد ـ في منزلها أو ناديها او كليتها ثم في عملها فيما بعد ، واحيانا اخرى كانا يلتقيان عفوا • وفي كل لقاء ، كان قلبها يحتفل بمجيئه • كانت تعجب بحديثه وآرائه وتبتهج بشخصيته ورجولته وكان هو ينتشي بتعليقاتها الذكية واطلاعها المتواصل وبشعرها وعينيها وابتسامة شفتيها •

ومع ذلك لم يحدث أن اعترف أحدهما يوما ما بما يكنه من ميل

نحو الآخر .. في حديث أو موعد أو قبلة . ولهذا فان عواطف أحدهما نحو الآخر لم تتحدد بصفة نهائية في يوم من الايام . وكأنما وصل كل منهما الى تلك المرحلة التي يرى فيها المحب أن يفضي بحبه الى الاخر ثم فضلا ان يتريثا عند هذه المرحلة وأن يتريثا الى الابد فوقفا عند رغبة الاعتراف ، بغير اقدام على الاعتراف .

وتزوج هو وتزوجت هي ، وأنجب كل منهما اطفالا ، وأحب هو زوجته واطفاله ، وأحبت هي زوجها وأطفالها وما زالت الغبطة تجتاح كلا منهما حين يرى الاخر ، بعد ان ضاعف الزواج من ذلك الابهام السعيد الذي يعيشان فيه ، وقد أدركا ان تعريض مشاعرهما للضوء وللوضوح وللافصاح سيقتلها فورا فيحرمهما تلك اللذة التي يخفيها كل منهما ــ حتى عن صاحبه ــ في أعمق أعماق فؤاده .

وكأنما أصبح كل منهما سعيدا بأن يتساءل عن مدى تلك الغبطة التي تغمر الاخر في وجوده ، بغير ان يتحقق ابدا من الجواب القاطع المحدد .

انهما ما يزالان كلما التقيا ــ كماالتقيا منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما ــ يحسان بهذا القلق العذب الذي يؤرجحهما بين الحرمان والحصول، وبين الاعجاب والحب ، وبين الصداقة والهيام .

ــ ٢ ــ

عندما هبطت من المحطة وجدتني أمام طالب في حوالي الرابعة عشرة من عمره ، يمسك كتبه بيسراه ، ويلوح بحرية في الفراغ بيمناه ، وقد جذب انتباهي اليه اندفاعه المرح في طريق المدينة المزدحم ، وهو يصفر

لحنا طروبا ، وخطوه يكاد يكون قفزا •

وعندما اقترب من موقف عربات الحنطور في الميدان ، مد يده اليمنى وداعب بها رقبة الحصان المشدود الى احدى هذه العربات ، واستجاب الحصان لهذه الملاطفة ، ورفع رأسه وهز أذنيه ، بينما واصل الطالب سيره وهو يصفر لحنه •

وعندما اقترب من بائع العصير ، وجد طفلة زنجية اللون ، لا تتعدى الخامسة من عمرها ، واذا به يحملها الى أعلا ، ودهشت الطفلة من المفاجأة ولكن وجهه الضاحك أعاد اليها الطمأنينة، فما لبثت شفتاها أن انفرجتا عن ابتسامة عذبة ، وهو يعيدها الى الارض ، يحرك لها فمه وعينيه حركات جعلت الطفلة تنطلق ضاحكة •

وواصل الطالب من جديد سيره ، حتى اذا وصل عند ملتقى للطرق ، وجد متسولة عمياء قابعة هناك فتوقف عن سيره ، وأنا أرقب كيف يلاطف هذه العجوز أيضا ،ورأيتهما يتبادلان بضع كلمات ، تلفتت على أثرهما المتسولة العمياء ثم قادها من يدها وعبر بها الطريق ، حيث أسلمها الى زاوية أخرى بينهما انطلق هو من جديد واختفى عن عيني وهو ما زال يقفز ويصفر •

— ٣ —

كنت جالسا مع بقية الركاب في العربة المفتوحة من ترام رقم ٣٠ ، وكان يجلس الى جانبنا صبي في حوالي الثانية عشرة من عمره ، ولكنه لا يجلس على المقاعد مثلنا انما على حافة الترام الشمالية •

ويبدو أن الراكب الملاصق لتلك الحافة ، والتي تلامس قدمه ظهر

الطفل ، كان غير مرتاح الى وجود هذا الصبي • لعله يخشى من قذارته ولعله يخشى ان يكون نشالا ، فما أقبل المحصل حتى تشجع وصاح في الولد يطلب منه مغادرة الترام ، وسمعه المحصل فانضم اليه يشتم الولد ويسبه • ولكن •••

ولكن فجأة ـ وقبل أن تنتهي صيحات الراكب وشتائـم المحصل ، وقف الترام في غير محطة ، وتطلعنا لنعرف السبب ، فاذا بسنجة التـرام قد انفصلت عن الاسلاك الكهربية المرتفعة وقفز حبلها فوق سطح التـرام بحيث أصبح من المتعذر توجيهها لاعادتها الى مكانها •

ورأيت الصبي يغادر مكـانه ، ويقفـز فـوق سطح الترام ، واذا بالمحصل ـ نفس المحصل يناديه قائلا : أيوه امسك الحبل م نهنا ، مـا تخافش يا ولد ما فيش كهربا من هنا ، أيوه احدف الحبل ، برافو عليك ، أيوه كده •

وعندما بدأ الترام يتحرك من جديد ، عاد الصبي يجلس في مكـانه المتواضع واثقا ان احدا لن يجرؤ على اعتراضه •

ـــــــ

ـ ٤ ـ

كان الاتوبيس مزدحمـا بالجالسين والواقفـين لا سيما في درجتـه الثانية • وكان المحصل منهمكا في عمله مع ركاب تلك الدرجة •

وفجأة وقفت سيدة أجنبية من ركاب الدرجة الاولى تنادي علـى المحصل فهي تريد ان تغادر الاتوبيس في المحطة التالية ولم تدفع بعد أجر انتقالها ولكن المحصل كان منهمكا في عمله بحيث تعذر عليه أن يسمعها •

وكان هناك عامل يقف بين الدرجتين الاولى والثانية ، فما كان مـن السيدة الا ان اعطته القرشين راجية ان يسلمها للمحصل • ثـم وقف

الاتوبيس وغادرته السيدة • ويبدو ـ لكثرة الزحام ـ أن أحدا غيـري لم ينتبه الى ما حدث في تلك اللحظات القلائل ، وكان قربي من العامـل يسمح لي بأن اتتبع الامور عن كثب ، فعندما أقبل المحصل اخيرا رأيت العامل يقص عليه قصة السيدة ثم يعطيه القرشين ، ويخرج قـرشا ثالثـا ليصرف تذكرة له • وبعد أن صرف المحصل للعامل تذكرته ، رأيته بدوره يفصل من دفتره تذكرة من تذاكر الدرجة الاولـى ويؤشر عليها بقلمـه ثـم ••• يمزقها وسط الزحام •

ـ ٥ ـ

كنت كثيرا ما أذهب بابنتي الى أطباء الانف والأذن والحنجرة ، فقد كان لديها التهاب يكاد يكون مستمرا في اللوزتين ، وكنا نحاول أن نؤجل اجراء عملية استئصالهما • وكانت ابنتي في الرابعة من عمرها لا تخـاف شيئا مثلما تخاف الاطباء ، لا سيما أطباء الانف والاذن والحنجرة ، فهـم بسبب ضيق وقتهم بسبب كثرة زبائنهم بسبب شهرتهم •• يرغمونها بمجرد ان تدخل غرفة الفحص على أن تفتح فمها ، ويضعون فيه ما يشبه الملعقة ، ثم يلحون عليها أن تخرج صوتا معينا من حلقها ، حتى لتكاد تتقيأ ، ثـم يمسكون بأذنها ، ويطلون في تجويفها بعين يضيئها نور كهربائي ثم يمدون فيها شيئا معدنيا طويلا ، وهي خلال ذلك كله تصرخ محاولة أن تفلت من بين يدي الممرض • وعندما ينتهي الفحص يكون وجهها قد تلطخ بالدموع والعرق •

لكن حدث ذات يوم أن اصطحبتها الى طبيب كان يبدو أنه يفهـم الطب بمعنى اوسع مما يفهمه الاطباء الآخرون ، فرغم ازدحام عيادته بعدد

كبير من المرضى ، الا أنه عندما دخلت ابنتي غرفة الفحص ـ وكانت مضطربة كعادتها تكاد تبكي ـ أخذ يحاول تهدئتها ، ويفهمها أنه لن يؤذيها على الاطلاق ، وقد يسر له وجهه البشوش نجاح مهمته ، كما كان لابتسامته أثرها في طمأنينتها ـ وكان من أهم ما فعله أنه أبعد ممرضه عنها ، مما جعل هدوءها كاملا حتى أتم الفحص الذي يريده • ووصف لها الطبيب جملة ادوية ، ثم طلب أن اعود بابنتي بعد اسبوع ليفحصها مرة أخرى •

وفي الطريق كان واضحا ان ابنتي فخورة بأنها استطاعت ـ لاول مرة ـ ان تتغلب على خوفها من الاطباء ، وهو الخوف الذي طالما عيرناها به وطالما خجلت منه ، وكان يبدو أنها سعيدة بهذا الطبيب الذي اتاح لها هذا الانتصار • وفي المنزل قصت علي أمها كيف لم تطفر منها دمعة واحدة عندما كان الطبيب يفحصها ، وكيف فتحت فمها كما أراد ، وقالت آه كما اراد ، وأعادت القصة على جارة لنا ، كما أعادتها على جدها عندما أتى لزيارتنا •

ويبدو أن ابنتي كانت تفكر في طريقة تعبر بها عن عرفانها بجميل هذا الطبيب ، ذلك اني بعد اسبوع اصطحبتها الى نفس الطبيب ، وافهمتها اننا ذاهبون اليه ، وعليها أن تبدي نفس الشجاعة التي أبدتها في المرة السابقة• وقبل ان تدخل العيادة سألتني ـ كعادتها أحيانا ـ ان اشتري لها بعض قطع الحلوى ، فاشتريت لها ما ملأ جيوبها رشوة مني لابث الشجاعة في قلبها •

وأمام الطبيب وقفت في هدوء وهو يفحصها ، فلما انتهى من عمله فوجئنا بها تسأله : أنت عندك اولاد صغيرين يا دكتور ؟ فأجابها الطبيب مبتسما : أيوه عندي ولد صغير زيك يا حلوة •

فما كان منها الا أن قالت : طيب من فضلك ادي له البونبوني ده يا دكتور • ثم رأيناها تخرج من جيوبها كل قطع الحلوى التي اشتريتها

لها منذ دقائق ، وهي تكاد تملأ كفها الصغير فيتساقط بعضها على الارض ثم قدمتها الى الطبيب بينما كنا جميعا نبتسم •

— ٦ —

كنت أسير ذات ليلة وانا احمل ابنتي الصغيرة على يدي وهي مستندة الى كتفي ، وقد أحاطت عنقي بذراعيها الصغيرتين وشبكت اصابع يديها معا فوق ظهري •

وذات لحظة تعثرت قدماي في نتوء اصطدمت به فجأة في الطريق حتى كدت أقع على وجهي ، وكان الثقل الذي احمله يساعد على اختلال توازني

ولاحظت ان ابنتي ازدادت تشبثا بي ، فاعتقدت انها انزعجت خشية الوقوع ، لكنني سمعتها تهمس : لا تخف يا أبي ، اني أمسكك •

— ٧ —

بين النوم واليقظة سمعت ابني يبكي في غرفة نومه ، فهرولت من غرفتي وانا انفض عني النعاس محاولا ان اتعرف على الوقت فاذا هو الخامسة فجرا • وجدته في سريره ما يزال يجهش بالبكاء ، فسألته : مجدى لماذا تبكي ؟

قال متأثرا : حلمت أنك مت يا بابا

ــ لكنك تراني أكلمك •

ـ أعرف ، ولهذا أدركت انه كابوس •

ولم أشأ ان أسأله تفصيلات أكثر حتى لا يهجره النعاس ، فقد احتفل بعيد ميلاده التاسع مساء امس ونام في ساعة متأخرة على غير عادته ، ولهذا ما لبث ان استغرق في السبات كأنما لم يحدث شيء • أما انا فعدت الى سريري وقد أصابني شيء من تشاؤم • لعلها نبوءة لي على لسان طفلي •

وفي الصباح حاولت ان أتعرف على مصادر هذا الكابوس فتسقط عنه صفة النبوءة ، ويذهب عني تشاؤمي •• أعدت على طفلي ما بدر منه منذ ساعة أو أكثر ، فقال معللا : حذرتني مساء أمس من وضع الغطاء فوق وجهي حتى لا يأتيني الكابوس فوقع ما تنبأت به يا بابا • غير انه استطرد محتجا : ولو أنك لم تحذرني لما وقع شيء من ذلك ، فأنا أغطي وجهي كل ليلة ولا تزعجني أية أحلام • فقهقهت ساخرا ، واعتبرت الموضوع منتهيا •

غير أنه أثناء افطارنا ، وأثناء ثرثرته المعتادة ، قص علي قصة مما يرويه لي كل يوم عما يقع له في مدرسته • قال ان زميلا له في فصله ضئيل الحجم ضعيف البنية يهزأ به زملاؤه ويضربونه ويخطفون منه طعامه ، ولقد كان يستنجد بأمه من حين لآخر فتقبل الى المدرسة تشكو الاطفال الى مدرستهم أو ناظرتهم ليكفوا أذاهم عنه • غير أن هذا الزميل فقد أباه منذ أيام ، بينما ضاعف الاطفال من سخريتهم به وايذائهم له لا يعبأون ببكائه ولا توسلاته ، ولقد استنجد بأمه كعادته فلم تتمكن من نجدته بسبب ما هي عليه من حداد ، فاستغاث بعمه فتباطأ عن اغاثته •

عندئذ سألته : ولماذا لا تقف انت الى جانبه ، تدفع عنه أذى الآخرين وتنتصر له ؟

وفجأة رأيته يجهش بالبكاء ـ خجلا هذه المرة ـ وهو يقول :

انا ايضا يا بابا أضربه وأخطف منه طعامه •

— ٨ —

شكا كثير من مرضى الدكتور زكي صبري من وجـود حشرات في طقم الانترية بالغرفة الخارجية من عيادته• فكان المريض وأهله ــ وأكثرهم من فلاحي القرى المجاورة للمدينة ــ ما يكادون يجلسون على الكنبة أو احد المقاعد الاربعة من هـذا الطقم حتـى تسري على أبدانهم حشرات تنطلق من أماكن خفية ومجهولة شد ما تضايقهم • وقـد حاول الممرض عبثا آن يقضي على هذه الحشرات بكـل آنـواع المبيدات ، فقد كانت تختفي أياما لتعود الى الظهور من جديد ، وعندما ادرك الطبيب اخيرا ان ممرضه في معركة خاسرة مع هـذه الحشرات وانها قد تهدده بـانصراف زبائنه عنه ، أمر الممرض ببيع الطقم في أسرع وقت وبأي ثمن • وساعـد الطبيب على اتخاذ هذا القرار ان الطقم كـان قديما ، فقـد اشتراه منذ افتتح عيادته منذ عشرين عاما •

ولم يكن أمام الممرض الا تاجر المزاد الوحيد في المدينة ، فحمـل اليه الطقم يعرضه عليه للبيع ، وأظهر له التاجر ــ كما هو متبع في مثـل هذه الحالات ــ رغبته عن شراء مثل هذا الاثاث القديم • وأخيرا قبـل أن يدفع جنيهين ثمنا له • وأخفى عنه الممرض ان هذا الأثاث ملك لسيده، لئلا يعلم بسر الحشرات فيطلب من الممرض ان يدفع له ثمن التخلص منه •

وحدث بعد ايام ان تقابل الطبيب وتاجر المـزاد ، فرأى الطبيب ان ينتهز هذه الفرصة ليحدثه في أمر شراء طقم بدلا من الطقم القديم الـذي باعه ، فما كان من التاجر الا أن اندفع يحدثه عن طقم « لقطة » اشتراه حديثا من أثاث القصور الملكية المصادرة ، وأنه ــ اكراما للطبيب ــ لن

يبيعه الا بنفس ثمن شرائه وهو عشرة جنيهات • واثار التاجر حماس الدكتور زكي صبري فذهب معه ليعاين الطقم الاثري •

وما أن وقعت عين الطبيب على الاثاث الملكي المزعوم حتى ادرك انه ليس الا امام أثاثه الذي تخلص منه ممرضه منذ أسبوع • ولكنه تصنع الجد وقال للتاجر مستفهما :

ـ هل تعرف الامير الذي كان يمتلك هذا الاثاث ؟

وأبدى التاجر جهله وان عاد يؤكد انه من أثاث أحد القصور المصادرة • وهنا اثار الطبيب دهشة التاجر وهو يقول : أما أنا فأعرف •• ثم أشار الى نفسه قائلا :

ـ لقد كان هذا الاثاث ملكا للامير •• زكي صبري •

ـ ٩ ـ

في شهر مايو الماضي استحق الاستاذ قدور علاوة قدرها جنيه مصري واحد ، ينقص بضعة قروش بعد حذف الضريبة المستحقة ، ولكن الباقي ينفعه بلا شك في تسديد شيء من ديونه •

ومضى شهر يونيو ثم يوليو فأغسطس ، وكلما شكا قدور افندي الى زميل له بالمكتب ـ وهو زميل ليست له علاوة ـ كان يجيبه قائلا : أهو كله متحوش لك •

وقام الاستاذ قدور بأجازته الصيفية في سبتمبر ثم عاد منها يتساءل عن أخبار العلاوة فاذا لا جديد فيها ، وفي شهر اكتوبر اتفق الاستاذ قدور وزملاؤه المستحقون لعلاوات مثله أن يكتب كل منهم شكوى لاستعجال وصول ما تأخر وما استحق • وحرصوا على كتابة الشكاوي وافية بجميع

البيانات اللازمة حتى لا يلتبس شيء على الموظف الـذي بيـده الامر ، ورفعوها عن طريق رئيس المصلحة ليرفعها الى السيد مدير المستخدمين ليرفعها الى الموظف المختص •

ومضى شهر نوفمبر ولم تصل العلاوة، فكتب الاستاذ قدورشكوى ثانية ، حريصا ــ كما في المرة الاولى ــ على استيفاء جميع البيانات • ومر شهر ديسمبر فكتب شكوى ثالثة •

وفي أوائل شهر فبراير ارسل سكرتير المصلحة الى الاستاذ قـدور ساعيا يطلب منه ان يأتي لتسلم خطاب له بشأن علاوته • انفرجت أسارير الاستاذ قدور ، وظهر السرور على زملائـه لان وصول عـلاوة زميلهم بشير بالخير لهم جميعا ، وحسدوه في قلوبهم لانه سيقبض علاوته قبلهم، وانهالت النكات عليه ، فهو سيقيم حفلة عشاء لزملائـه : أو سيذهـب ليخطب بنت الحلال ، أو سيوزع الشربات عليهم • بينما منى الساعـي نفسه بالحلاوة •

وعندما عاد الاستاذ قدور من عند السكرتير كان يحمل نفس شكواه الاولى التي ارسلها في آكتوبر الماضي ، منذ خمسة اشهر ، وتجمع حوله زملاؤه يقرأون عليها في لهفة هذه التأشيرة : « يعاد لوضع ورقة تمغـة فئة مائة مليم ، ويجري اللازم » •

وعاد صوت الزميل ــ الذي ليست له علاوة ــ يرتفع قائلا :

معلهش ، كلـه متحوش لك •

ــ ١٠ ــ

عندما عين المدير الجديد لمنطقة •••• التعليمية قرر ناظر المـدرسة

اقامة حفل لتكريمه واوحى الى الاساتذة والطلبة ان يلقوا الخطب بين يديه احتفاء به واشادة بمآثره على التعليم ، وتسابق الجميع في الاستجابة لهذا الطلب .

وكان لا يمر وقت حتى تسمع الناظر يتحدث عن المدير وأياديه البيضاء على العلم والتعليم .

وذات يوم اعلن ان المدير قد نقل من منصبه مغضوبا عليه لخطأ ارتكبه . وانقلب الناظر فجأة يجرحه وينقده ويندفع في النيل منه ، كما اندفع من قبل في مديحه .

وعندما اعلن اسم مدير المنطقة الجديد بدأ يعد العدة لاقامة حفل لتكريمه .

وكان قد وفد على المدرسة في هذه الاثناء مدرس أول للغة العربية، شديد الاعتداد بنفسه ، لا تفارقه ابتسامة تدل على الثقة في نفسه ، سمع من اخوانه اطرافا من الحديث عن الناظر وحفلات تكريمه .

وذات يوم اتاه الناظر يرجوه ان يعد خطبة يلقيها على مسامع المدير الجديد ، وأعطاه قائمة بأعمال المدير الرائعة ، وتاريخه الطويل في التعليم. ووعده المدرس باعداد الخطبة .

ومر اسبوع .. وسأله الناظر فيما تم من أمر الخطبة ، فطلب منه ان يمهله اسبوعا آخر ، ومر الاسبوع ولم ينجز الاستاذ شيئا مما وعد مما جعل الناظر يلح عليه حتى وعده بأن تكون الخطبة معدة في اليوم التالي .

وفي اليوم التالي كان المدرس الاول يسير برفقة الناظر يراقبان الطلبة عندما سأله الاخير : أظنك وفيت بوعدك واعددت الخطبة . وما كانت اشد فرحة الناظر عندما سمعه يقول بأنه أعدها .

ولكن فرحة الناظر لم تتم عندما سمع المدرس الاول يتم حديثه قائلا : ولقد جعلت لخطبتي عنوانا . ثم سكت قليلا وابتسم ابتسامته

وضغط على مخارج الحروف وهو يقول •• ان موضوعها النفاق ••

وفوجيء الناظر بهذه الاجابة • بينمـا استطـرد الاستاذ يقول •• وأوردت في خطبتي بعض الامثلة •

وانسحب الناظر مطأطيء الرأس ، ولم يقم حفل التكريم ابدا •

— ١١ —

كان في نهاية حارتنا القديمة المتداعية خرابة ، وكانت تسكن الخرابة فتاة بلهاء ، وقد حـدث ذات يـوم آن حملـت البلهـاء مـن شخص مجهول ، مما اثار ثائرة أهل الحارة ولكنها حين ولدت ووجدوها تعامل طفلها بحنان كما تعامل بقية الامهات أطفالهن ، نسوا ثورتهم •

وكان من بين هؤلاء السكان احدى البائعات الجائلات ، تسكـن غرفة في منزل قديم امامنا ، وكان ذلك المنزل مكونا من ثلاثة طوابق ذات مشربيات يرجع تاريخها الى أيام المماليك • وقـد عطفت البائعة عـلى العبيطة وابنها حتى أنها آوتهما في غرفتها •

وحدث ذات صباح أن انهار أحد جوانب ذلك المنزل ، وكان ذلك الجانب هو الذي تقع فيه دورات المياه • فذعر سكانه لحظة ثم ما لبثوا آن عادوا عندما تبينوا أن احدا منهم لم يصب بسوء • وأصلحوا دورات المياه وقرروا استئناف الحياة فيه كأن لم يكن شيء •

أما البلهاء فقد اصابها ذعر وكأنما رأت ان خير طريقة لحماية طفلها هو عدم المبيت بذلك المنزل ، فلجأت الى خرابتها بينما بقي العقـلاء في المنزل الآيل للسقوط ، يسخرون منها •

وعندما اقترب الشتاء حاولت البائعة ان تقنع البلهاء بضرورة العودة

الى المبيت معها في الغرفة خوفا على صحة الطفل ، ولكن العبيطة كـانت تهز رأسها رفضا •

وذات مساء شديد البرودة والعواصف ، قررت البائعة أن تـأخذ الطفل بالقوة من العبيطة واستطاعت فعلا ان تأخذه منها ، ثم أغلقت بابها والعبيطة تعوي خارجه عواء مريرا •

وكانت الساعة قد أشرفت على العاشرة مساء عندما خرجت لاشتري علبة سجائر من الدكان الذي يقع على رأس حارتنا ، فلمحت العبيطة وهي ما تزال تعوي •

واشتريت سجائري ثم قفلت راجعا • وفجأة سمعت دويا ورأيـت نوافذ العمارة القديمة التي تواجه منزلي تنفتح ثم يعلو منها صراخ وغبار كثيف ، ورأيت البلهاء تندفع نحو الغرفة التي انفتح بابها وحيث يرقـد طفلها ، وكدت الحق بها لاشدها خارجا خوفا على حياتها ، لولا ان وجدت المنزل يتداعى ويصبح في لحظات انقاضا •

وفي الصباح كان عمال الانقاذ قد ادوا مهمتهم واخرجوا من بـين انقاض الغرفة جثة البائعة كما انتشلوا جثة البلهاء ، أما طفلها فقد وجدوه حيا ، يحميه جسد امه وقد وجدت شفتاه طريقهما الى ثديها، فجعل يمتص منه في طمأنينة وهدوء •

يومٌ في الخريف

« يوم في الخريف » قد لا تكون قصة ، لكنها من المؤكد ليست مقالا ، وقد ظلت تنزوي بين أوراقي قرابة عشرين عاما عبثا أن يضمها كتاب . وأخيرا استأذنت ـ كأنما في خجل ـ ان تقبع في آخر هذه المجموعة ، معلنة بذلك أن الشكل القصصي هو أفسح صدرا لها من آية اشكال ادبية اخرى .

كان يوما تشيع فيه برودة خفيفة مثلجــة ، وشعــاع الشمس ينشر الدفء كلما عبر غيمة قصيرة دكناء . وكانت ضاحية المعادي الساحرة قد لفتها رائحة الخريف الرطبة ، وبدت بأشجارها ومنازلها وسحبها وسمائها ــ من المنزل الذي كنا به ــ كأنها لوحة قد انتهى الرسام لتوه من توزيع ألوانها الندية الواضحة . وكانت تلال المقطم تحتضن المنظر جميعه مــن بعيد وتكون له اطارا سحريا حيث كانت الطبيعة تكافح من أجل أن تلتقي نهايات الافق بنهايات الارض .

وكان المنزل الذي جمعنا أنيقا وبسيطا ، سواء فيما يحوى من أثاث أو في علاقتك بأصحابه ومن اجتمع فيه من الاصدقاء . ولم يكن يحوى سوى غرفتين ، احداهما تستعمل كغرفة مكتــب عنــد انفــراد أصحابه بأنفسهم ، وكغرفة استقبال عند وجود الاخرين . وكانت هذه الغرفة قد امتلأت بنحو عشرين شخصا ما بين فتى وفتاة يكادون يكونون جميعــا بين الحادية والعشرين والثامنة والعشرين ، ما بين اقرباء واصدقــاء .. وهكذا اجتمع الشمل .

وبمجرد صعودك درجات السلم وتخطيك الحاجز الخشبي الـذي أقيم على الباب خوفا على الصغيرة مـن الوقوع ، فـانك تحس الثقـة والطمأنينة . فأنت هنا لا تتعامل مع غرباء ، ولكنك لا تتعامل كذلك مع اشخاص ظلوا يرعونك منذ الطفولة حتى أصبح لهم عليك فضل ، وظلوا يراقبون حسناتك وسيئاتك حتى ما عدت تخشى أن تظهرها أمامهم ، بل أنت هنا في جو عائلي رقيق ، قـد يعرف نقائصك ومـآسيك ، ولكنه لا يطالبك الا بأن تقدم خير ما لديك .

الغنـاء :

وكان ثمة فتاة ـ ربما في الثانية والعشرين من عمرها ـ قد جلست على أحد المقاعد المبطنة . وكانت مثار اهتمام الاخريـن لانها غريبة عـن كثرتهم ، ثم هي تثير انتباههم بثوبها الانيق ، نصفه الاعلى ذو لون أحمر به دوائر صغيرة بيضاء قد كشف عـن ذراعين سمراويـن حتى الكتفين المستديرتين الناعمتين ، وكشف بلونه الاحمر عن الصدر الخمري ، أمـا نصفه الاسفل فكان أسود كشعرها الكثيف المتناثر حتى الكتفين .وكانت تتميز عنهم بشيء ثالث ، ذلك انها الفتاة الوحيدة التي وضعت المساحيق على وجهها في صراحة ووضوح لا سيما ذلـك الاحمـر الوردي الذي صبغت به شفتيها فبدتا دقيقتين والفم صغيرا كأنه فم طفل . ثم هي تتميز عنهم بشيء رابع كان هو أهم التميزات جميعا ، ذلك ان لها صوتا ذهبيـا كما شاءت ان تعبر عنه الجماعة .

وقد دخلت صاحبة المنزل تحيي الجماعة بابتسامتها السخية ، ثـم حملت لفائف من الورق قيل انها طعام العشاء الذي حملته الجماعة معها الى هذا المنزل . فهنا لا يقدم المضيف الطعام لضيوفه بل ان العكس هو التقليد ، فالضيوف يحملون الطعـام ويدعـون أصحاب المنزل لتناوله

معهم ، وهذه درجة من درجات اللـون الذي يصبغ العـلاقة بين هؤلاء الافراد جميعا • فأنت اذن لا تكاد تعرف من هـم الضيوف ومن هـم المضيفون •

وما أن حملت صاحبة المنزل هذه اللفائف وغابت ـ الـى المطبـخ غالبا ـ حتى تطلعت العيون الى « حفصة » تطلب منها الغناء • وكـان صاحب أعلى صوت هـو شاب عريض الصدر فارع القـوام يضـع (عوينات) سمراء • فاحمر وجهها قليلا وأظهرت بعض الدهشة والتجاهل لكن الانسان الذي يعرف أن له صوتا جميلا وانه يجيد الغناء ليتمنى خجلا لو أن أحدا قـد اكتشف فيه فجأة هـذه الموهبة ليذيعهـا على الآخرين فيتهافتون طالبين أن يسمعوه • ولهذا كان مجرد وجـود « حفصة » في الجماعة يغريها بالغناء ويعد نفسها وروحها لذلك • وكان قليلون قـد استمتعوا بسماع صوتها من قبل ، أما الآخرون فكان يخالط رغبتهم في الانصات رغبة أخرى في الاكتشاف • اكتشاف حيوية هذا الصوت ومدى صدق ما سمعوه عنه من قبل والى أي حد يستطيع ان ينشيهـم أو يثير أشجانهم • أتراه منخفضا أم مرتفعا ؟ صافيا ام أجش بما يملأه بالحنـان والرقة ؟ وهكذا كانوا يبلورون في روحها الرغبة والموهبة •

وأخيرا بدأت تغني •• كانت تضع ساقا على ساق ، وبدا وجههـا كأنما اكتسب الجد ، وربما هي الصورة التي تتخذها عضلات وجههـا كي تغنى • ولكنها كانت تحس بلا شك أنها تقوم بعمل جدي وكـان صوتها ينخفض في حنان حالم تارة ويرتفع في شكوى صارخة مرة اخرى وهي تغني : يقصروك ياليـل ، ويطـولوك يا ليل • وكـانت أصوات الاستحسان ترتفع بعد كل وصلة ، وكان أعلى الاصوات جميعا هو صوت ذلك الشاب العريض ذي العوينات السمراء ، فكان يحرك رأسه الـى اليمين والى اليسار نشوان بالصوت المتموج مع تعبير الالفاظ وانفعالات المعاني ، حتى لأضحكها اكثر من مرة وهي تغني ، فكان يتبدل وجههـا

فجأة من الجد الى الضحك العميق المرتفــع كأنمــا تحرر نفسها من كل القيود التي فرضتها على نفسها حين بدأت تغني ٠

وكانت هي تجيل عينيها في السامعين تارة وتطلقها في الفراغ تــارة أخرى ، وقد انفعلت مع الاغنية وبدا التأثر واضحا على وجهها وجسدها كأنما تستحضر تجربة لها من اعماق كيانها ، وبهذا تعين الآخريــن فتطفو تجاربهم القريبة والبعيدةمتجسدة في النغم المنفعل العريبد ، وكانت عيونهم تلتقي بعينيها ٠ هل كانت هذه العيون تحاول ان تقرأ شيئا في معنى هذا التلاقي ؟ أو كانت هذه النظرات التي تلقيها العيون ليست الا ستارايخفى وراءه انبثاق ذكريات وحوادث وعوالم ؟ لقد بدا على البعض أنــه ترك عينيه الشاخصتين توهمان الجالسين انه لا يزال هنا ، بينما هو قد رحل الى حيث لا يعرف آخر ، والغناء يصل الى سديمه العاطفي في انخفاضــه صوت حالم مرة وأنين صارخ مــرة أخرى فيدفعــه ابعد في مجاهيلــه المترامية ٠

وفجأة دخلت الصغيرة على مهل تتلفت هي ايضا باحثة عن مصــدر الصوت ٠ كان وجههــا ابيض ووجنتاهــا ممتلئتين حمراوين وعيناهــا رماديتين ، وكانت تبتسم للجميع بلا استثناء وان حاول واحد أو اثنان ان يستأثر باتنباهها ٠ وكان الغناء قد انتهى واعقبته موجة من التصفيــق واصوات الاستحسان لا سيما من الشاب العريض ذي العوينات السمراء فحاول كل ان يداعب الصغيرة ، حــين رآها الجميــع تغادر الغرفة بــلا اكتراث ٠

ومضت لحظة ، لحظة واحدة قصيرة صامتة ، كان فيها صدى الغناء لا يزال يسري في الدماء كأنما تتشربه بلذة على مهل ، والجميع يحسون أن موسيقى العالم كلها ان هي الا محاولات لن تبلغ كمالها من أجل الوصول الى الغناء الانساني الذي لا يمكن أن تنشده الا أوتار انسانية ٠

اللعب :

- ثم أقترح اقتراح صادف قبولا ، ذلك هو النزول الى حديقة الدار والاشتراك في بعض الالعاب • فبدأ الجميع يغادرون الغرفة متخطين الحاجز الخشبي • بينما أسرع اثنان باعداد الأرجوحة بين شجرتين من اشجار الحديقة ، ولم تكن الأرجوحة سوى حبل من حبال الليف السميكة ، يعقد طرفاه في الشجرتين ثم يوضع جوال فارغ في انحناءة الحبل التي تبعد عن الأرض مترا أو بعض متر ليقوم بدور المقعد • ثم جلست احدى الفتيات وتشبثت بالأرجوحة وأخذ شاب أو اثنان يدفعان الأرجوحة • ويبدو أنها لم تقدر شيئا من المصاعب التي تعترض راكب الأرجوحة • فرغبتها كانت متجهة فقط الى اللذة التي يمكن أن تحصل عليها من وجودها في الفراغ • وما أن أخذت حركة الأرجوحة تزداد حتى بدأت الفتاة تستغيث وتطلب ايقافها ، محتجة بأن المقعد غير مريح ويكاد يميل الى اليسار أكثر مما يميل الى اليمين • وكأنما كانت هناك رغبة في مشاهدة ضعف الغير واضطرابه تدفع أحد الشابين الى عدم الاكتراث لهذه الصرخات ، فيزيد من نشاطه في دفع الأرجوحة دفعا عنيفا الى الامام والى الخلف • لكن الصرخات النسائية أخذت تزداد فاكتفى بأن كف عن دفع الأرجوحة بينما تولى زميله ايقافها •

وأدرك الجميع أن ارتقاء الأرجوحة ليس لذة تشذ عن باقي اللذات ، فلا بد من الجهد الذي تبذله للاحتفاظ بتوازنك كي تحصل على لذة التأرجح • وهكذا بدأ الآخرون يرتقون الأرجوحة وكل منهم يحصل على هذه اللذة بمقدار ما لديه من استعداد للاحتفاظ باتزانه وبالسيطرة على أعصابه • على أن اعلان الهزيمة أمام هذه اللذة لم يكن مخجلا الى حد كبير ، فقد أتاح جو الصداقة والالفة بين الجميع أن يشارك المهزوم الآخرين في الضحك عليه • والواقع أنه قد أتيح للجميع

فرصة طيبة لمشاهدة جوانب أخرى للشخصيات التي لم تألف أن ترى بعضها الا في ثياب الجد والعمل ، حتى لقد كانت الفكرة التي كونها كل عن الآخر خالية من وجود هذا الجانب الرياضي المنطلق المرح • وما كان يمكنه أن يتخيل أنه يستطيع أن يرى هؤلاء الاشخاص وقد رفعوا عنهم ملابسهم الثقيلة ، حتى لقد نزع البعض حذاءه ، ثم انطلقوا يعدون خلف بعضهم بعضا • وربما كان من العجيب أن يكتشف الانسان في صديقه الذي يوحي نشاطه الذهني والعاطفي — لسبب غير منطقي — ببلادة في جسده ، أنه يستطيع أن يعدو خيرا مما كان يتوهمهم أنشط حركة وأسرع عدوا • ففي مثل هذا الجو تتحقق فجأة امكانيات على نحو جديد ورائع وجميل •

الرقص :

حتى اذا ما أخذ التعب يدب في هذه الجماعة التي لم تكن قد حركت عضلاتها منذ زمن بعيد حتى لكأنها صدئت ، فكروا في العودة الى أرديتهم ومظهرهم الاول • وجلس البعض طلبا للراحة ، بينما اندفع آخرون نحو الماء يغتسلون ويحسون هذه اللذة العميقة عندما يسيل الماء البارد على أجسادهم التي تصبب عليها العرق • وسرعان ما اجتمع الشمل في الغرفة الصغيرة مرة أخرى ، وهم يعللون النفس بنكتة تقال في هذا الركن أو بتعليق صغير على حدث ما يقال في الركن الآخر • لكن الجميع يحسون أن هذا التعلل غير مجد ••• حين ينادي مناد بأن «صفية» تجيد الرقص الايقاعي •

وصفية فتاة في نحو الثانية والعشرين كذلك ، كانت تجلس مع صديقتها هدى في الطابق الأسفل حين سمعت غناء حفصة فأتت تشارك الاخرين في الاستماع الى الصوت الذهبي • وقد لفتت هي الاخرى

الجماعة حين دخولها بتشابهها الظاهر مع حفصة • فهـي ترتـدي ثوبا سماوي اللون ، يكشف عن ذراعين ناعمتين ، وثمة شعر كلما تراخى على عينها اليمنى دفعته برشاقة الى الوراء نحو رأسها ، وتصبغ شفتيها بلون أحمر برتقالي • وكانت تجلس طوال الوقت صامتة تغرز ابرتها في رداء من الصوف لما يبدأ • وهي ترفع عينيها بين حين واخر تتأمل الاخرين الذين ربما هم أيضا يتأملونها • ورغم صمتها ، فان مجرد هذا التشابه بينهـا وبين حفصة اوحى بانه قد لا يكون نتيجة للصدفة الخالصة ، مما دفـع احد الشبان ليسألها ما اذا كانت تجيد الغناء •• وهنا تطوعت صديقتها للاعتراف بالحقيقة المجهولة الهائلة •• انها تجيد الـرقص الايقاعـي • وتنبهت العيون المسترخية ، فهذا لون جديد لم تشهده الجماعة ، مما أثار يقظتهم واعاد اليهم نشاطهم واستعدادهم الحي •

ويبدو ان صفية كانت أنموذجا اخر للمرأة مختلفا عن حفصه رغـم التشابه الظاهري بينهما • فصفية لا تتمنع كما تتمنع حفصه ، بل بمجرد اعلان موهبتها أصبحت تريد الرقص وترغب في ذلك أشد الرغبة ، حتى لقد خيل لبعض الخبثاء أنها ما صعدت الى الجماعة لتستمع الى حفصـة بل لكي تتاح لها فرصة ترقص فيها امام الجماعة • وهنا بدأت الحاجة الى نغمة راقصة ، وسرعان ما رؤى المذياع وهو يوضع في نافذة تطل عـلى مكان فسيح في العراء • وسرعان ما انتقلت اليـه الجماعة ، كـل يحمل كرسيه ويغادر الغرفة ، ونظفت الارض ونزعت صفية حذاءها ، فأصبحت بساقيها المنسابتين وذراعيها الناعمتين حتى الكتفين البلوريتين وبشعرهـا المسترخي على عينها اليسرى وجسدها الناضج المتفتح ، خير من يمتـع الجماعة برقصة ايقاعية رائعة •

على ان المذياع لم يفلح في اخراج نغمة واحدة راقصة من جميـع أنحاء الارض، وكان الجميع قد هيئوا انفسهم للتمتع بهذه المشاهد الجميلة فوجدوا صعوبة في أن يغيروا ما هيئوا انفسهم له ، لهذا الحوا عـلى

المذياع في التقاط نغمات الجاز او التانجو أو الرومبا ، لكن جميع محطات العالم أعلنت عصيانها • وبدا الاشفاق على صفية ، فهي التي أعـــدت نفسها للقيام بالدور الرئيسي ، وكان عليها أن تبذل مجهودا جبارا لكي تعدل عما منت نفسها ـ ومنت الجماعة به ـ فاقترح العودة الى الارجوحة واللعب حتى يلتقط المذياع نغمة مناسبة • حين اعلن احـد المتحمسين أن ثمة نغمة في المذياع يمكن الرقص معها •

وجلس الجميع متأهبين للتمتع بالرقص في ساعة الغسق • ذلك ان الشمس كانت من بعيد قد بدأت تتوهج توهجها الاخير ، وكانت قـــد نثرت على غيوم الخريف الوانها السحرية الحمـــراء وأشعتهـــا الفضية المتكالبة بالغيوم • لكن نغمة « الجاز » ما لبثت ان انتهت بمجرد التأهب لكل شيء ، وفجأة سمع صوت الموسيقى من جديد فانفرجت الاساريـــر وارهف الجميع آذانهم • فاذا بالموسيقى من نوع السينفوني • وبدا على حفصة انها لن تتراجع حين اعلنـــت انها قـــررت ان ترقص علـــى نغمة السينفونية •

واقبلت في خطى وئيدة وسط الحلقة ، ورأينا الجسد الانساني الحي اللدن يتحرك ويتثنى ، والذراعين العاريتين ترتفعان تارة وتنبسطان فـــي الفراغ طورا آخر ، والشعر الكثيف ينسدل على العين اليمنى ثم يرتفع عنها ، وكأنما أصبحت العيون تقوم بحاسة اللمس ، فهذا جسد حي امامنا قد كادت ان تمس احدى ركبتيها الارض ، بينما انثنت الاخرى ، فبدت ساق واحدة عارية ، وقبل ان تملأ عينيك من هذا الوضع الساحر تراهـــا قد انتصبت ومضت تسبح في الهواء ، حتى لكـــأن عـــدم اتاحة الفرصة الكافية تستوعب فيها الوضع هو جزء من الوضع نفسه • وهكذا لـــم تكن صفية تعطي من الحركات الا اجزاءها ، ومن محاسن جسدهـــا الا بعضها ، مما يثير احساسا بالشوق واحساسا بالحرمان ومجالا للخيال •

ويبدو ان السينفونية بدأت في حركة « الاند انتي » فصرخت صفية

نريد من النغمة أن تسرع قليلا والا فان بطء حركتهـا يهددهـا بالتعب والرغبة في النوم • وفجأة لاح ان السينفونية قد اطاعتها ، وكانما كـان الجميع نهمين الى رؤية حركات عنيفة جنونية بدلا من هذا الهدوء الحالم، لكن الحركة ما لبثت ان عادت الى نغمتها الحالمة مرة اخرى ، فلم تجـد صفية الا ان تعلن انتهاء الرقص •

الليـــل :

وكان الغسق قد بدأ يصبغ الوجود كله بلونه الرمادي الخريفي ، وبدأت الاجسام تتداخل في الفراغ فتختلط جميعها في لون الليل المقبل ، بعد ما كان النور يضع حدودا فاصلة بين كل جسم والفراغ المحيط به • والمنظر الذي بدا رائعا سحريا من قبل كأنما هو الان لوحة قـد أخذت تبهت الوانها وتتقارب في لون واحد غامض ، يوشك آن ينتهي بـك الى الاحساس بالعدم • فالفروق تزول بين حدود التلال وسفوحها ،والتميزات تبهت بين الاشجار والمنازل والطرق ، وكأنما التميز والتفرد قد أجهد هذه الاوضاع جميعهافأخذت تفر الان الى ظلام الليل تنشد الراحة في الاحساس المطلق بالمساواة ، غير ان الانسان لا يتحمل الحياة بغير النور ، لهـذا فسرعان ما رؤيت الطرق وقد انبثقت فيها مصابيح مرتفعة يبدو شعاعهـا من خلال اوراق الاشجار ، كما بدت الاضواء الكهربية من خلال النوافذ، لكن النور لم يستطع أن يمتد الى كل مكان ، ففي الافق البعيد لم تعـد تميز بين السماء والارض ولا بين التلال وسفوحهـا ، وفي النهار تحس الطمأنينة لانك ترى السماء في جانب والارض في جانب ، وان مجـرد التنازع بينهما كفيل بأن يطمئن الانسان الى أنهما لن يتحدا عليه ، أما في الليل ، عندما تصبح السماء والارض كتلة واحدة من الفراغ الكبير المتسع فانك تفقد هذه الطمأنينة •

وبدات الجماعة تدرك ان الاصوات اخذت تحتل مكان المرئيات واخذت حواس النظر تأخذ بعض الراحة لتقوم حواس السمع مكانها بمهمة الاتصال بين الذات والعالم الخارجي . كأنما كان جو الظلمة المقبلة يحمل معه اغراء خبيثا بالاعتراف ، ففي العتمة عندما تبهت المرئيات وتزول التميزات امام النفس الانسانية ، ينهار الاحساس بأن هناك مقاومة او مراقبة خارجية ، وكأنما نستطيع ان ندلي بما شئنا من اعترافات في الفراغ الاسود المتسع الكبير ، واثقين انه مهما ازدحم بمثل هذه الاعترافات فان لونه الاسود يساويها بالاجسام الاخرى فلا تخشى افتضاحا . وهكذا اقترح على كل فرد ان يقوم بدور ايجابي في نشاط الجماعة ومرحها .وبعد ان كان هناك مغنية واحدة وراقصة واحدة ، اصبح الجميع مغنين وراقصين .

على اية حال كانت هناك رغبة من الجميع في التعرف على نواح جديدة من اصدقائهم فماذا عساهم قائلين ؟ على ان اولهم اكتفى بأن يغني اغنية ، حزينة قصيرة وفي صوت أجش ، كأنما هذه هي الوسيلة الممتازة للاعتراف في الليل امام الاخرين . وتبعه الثاني والثالث والرابع . واتى دور صاحب المنزل ، فارهفت الآذان تستمع الى هذا الشخص الذي لم يسمع مغنيا مرة واحدة في حياته ، ماذا عساه يفعل ، لقد بدا للبعض انه لو رفع صوته بالغناء فان هذا العمل الذي قد يبدو تافها عرضيا انما هو دلالة على وجود تحول خطير في حياته . على اية حال قد رفض الغناء بدعوى انه لا يعرف اغنية واحدة وانه يجيد السمع لكنه لا يجيد الحفظ واكتفى بان يقول نكتة ضج لها الحاضرون بالضحك . واذن فليس ثمة تحول خطير قد حدث في حياته .

وكان يكفي ان يرفض صاحب المنزل تنفيذ الاقتراح لكي يتعطل بعد ذلك . فرؤي ان تأتي خادمة المنزل « آمنة » لتغني بعض الاغاني الشعبية . وآمنة فتاة ريفية هادئة القوام لها صوت حلو رفيع ، كانت

تقوم على خدمة الجماعة منذ أقبلوا ، وحملت اليهم اخيرا اقداح الشاي التي مضوا يحتسونها في نهم ولذة وبعضهم يدخن لفافته • وقد اغتبطت آمنة لهذا الاقتراح وبدأت تغني بعض الاغاني الشعبية ، ثم بعض الاغاني الريفية • وبدا على البعض انهم يتذكرون الريف المصري وما يحوي من جمال وآلام ، وما يربطهم به من ذكريات جميلة ومفزعة • فأغلب القاهريين لهم اصول او اقرباء في الريف يزورونهم بين حين واخر ، وهناك يسمعون من الاغاني ما يصبح فيما بعد اطارا امينا للريف وذكرياتــه ، فاذا عادوا الى المدينة وسمعوا أغانيه لحظة ما ، بدت كأنما هي صندوق سحــري يتفتح عن عشرات الذكريات وآلاف التفاصيل الدقيقة المنسية الرائعة • وانتهت آمنة من أغنية بعد آخرى ولا يزال يطلب منها ان تغني أخــرى وأخرى •• وبدا أن الغناء والموسيقى وكل الفنون الصوتية هي الفنون الليلية بحق ، حيث يساعد الظلام الجسد علــى التفرغ لحــاسة السمع ، فيصبح الصوت هو الاداة التعبيرية الرئيسية في الليل •

الطعــام :

وكأنما بدأت ثمة معركة خفيفة تقوم بين الاستمرار في الحلم وبين الواقع • فالليل اخذيوغل وبدا ان العودة ضرورية ، حين اعلن ان طعام العشاء قد اعد • ولم يكن العشاء سوى هذا الطعام الذي حملته الجماعة معها حين مجيئها • لهذا بدأ الجميع يتركون اماكنهم ويدخلون الغرفــة المنيرة حيث كان الطعام قد اعد على المائدة في انتظار صاحبة المنزل• وكان منظر الطعام جزءا جوهريا من المنظر العام للغرفة ، بل اخذ يحتل بــؤرة النظر بينما الاشياء الاخرى تنزوي في ظلال الشعور ، وهكذا لم ينتظــر احد مجيء صاحبة المنزل التي تأخرت لسبب ما ، بل اصبح من الضروري جدا ان يختفي الطعام من فوق المائدة لانه يثير احساسا بالحرمــــان ،

ويتطلب من الجميع امتحانا غير ضروري لاراداتهم وصبرهم ٠

ومد احدهم يده في تردد يأخذ زيتونة فقط ، بينما مد ثان يده ليأخذ قطعة من الخبز يتبلغ بها ، وهو يضحك كأنما يعتذر للآخرين ٠ وفجأة وضحت رغبة الجميع حين أقبلت أخيرا صاحبة المنزل تقطع الخبز بالسكين ثم تقدم الطعام للجميع وتدعوهم الى أن يشاركوا فيه ٠

والواقع ان لذة التذوق من اجمل المتع التي تتاح للانسان ، وكأنما هناك قرابة شديدة بينها وبين اللذة الجنسية ٠ فكلاهما يعتمدان على اللمس المباشر ، بعكس الامر في لذات النظر والسمع والشم ٠ ولذات اللمس هي اقرب اللذات الحسية مجالا بالنسبة للانسان ، واللذات الحسية هي التي يشارك فيها الجسد ، فالنشوة الناتجة عن اللذة الحسية تسري في الجسد كله ، ولا يتاح للعقل أن يستأثر بالنصيب الاكبر كما يتاح له ذلك في لذات النظر والسمع ٠ ولقد كانت « المكرونة » اكثر انواع الاطعمة اتقانا ، وكان يجب مراعاة ذلك حتى يتاح للجميع ان يشاركوا فيها مما جعل نصيب كل فرد محدودا بعكس الامر في انواع الطعام الاخرى ، ومما ضاعف من لذتها الاحساس بعدم الاكتفاء منها وعدم وصول الرغبة فيها الى نهايتها ٠

وثمة شعور قد ينتاب البعض وهم يأكلون امام الاخرين ، فهم يحسون ان الانسان يتحول الى حيوان ، وتصبح الشراهة هي الرذيلة التي يخشى هنا ظهورها ٠ فالاقلال من النشاط الفكري ساعة الطعام والصمت السائد الذي لا ينقطع الا لرفع لون من الالوان واحضار اخر رؤية الملاعق والاشواك تدخل الافواه ممتلئة ثم تخرج فارغة ٠ كل ذلك قد لا يفكر فيه الانسان لو انه كان وحده أو كان مع أهل منزله الذين تعود أن يأكل معهم منذ نعومة اظفاره ، لكن وجودك فجأة امام الاخرين بمثل هذا الوضع يجعلك تحس — ولو بعض اللحظة — بحيوانيتك الكامنة في أعماقك ٠ وربما كان هذا سببا من أسباب لذة التذوق من

اللذة الجنسية التي يخجل الاثنان ان يستبيحاها امام الآخرين •

وقد انتهت عملية العشاء في نحو الساعة التاسعة والنصف ، وانتهت ـ كما بدأت ـ بغسل الايادي • ثم أخذ الجميع يتسللون من الغرفة المضيئة الدافئة الى الليل الخريفي العريض • وثمة خليط غير منتظم يحسونه في أجسادهم ودمائهم ما بين لعب وغناء ورقص وطعام • ومضت الفتيات يغنين في طرق الضاحية الساحرة يودعن هذا اليوم من الحياة الجميل •

وربما بمجرد تفردهم الى المسالك والطرق المختلفة المؤدية الى منازلهم ومخادعهم بدأت بقايا اليوم الرائع المنتشرة في الروح والجسد تختلط بتوقعات المستقبل • وربما بدأ البعض يعود الى مزاجه السوداوي ويفكر في الذين لا يتاح لهم ان يتمتعوا بمثل ما استمتع هو به في ذلك اليوم ، وربما كان هذا مجرد وضع اطار لتظهر من داخله متعته كاملة واضحة المعالم ، وربما هي الطبيعة البشرية التي تحب ان تشرك الآخرين فيما حصلت عليه من متعة وسعادة •

يناير ١٩٤٩

كتب أخرى للمؤلف نشرت بالقاهرة

مجموعات قصصية

العشاق الخمسة	ط أ ، مؤسسة روز اليوسف الكتاب الذهبي ، ١٩٥٤ ط ٢ ، الدار القومية ، الكتاب الماسي ، ١٩٦١ .
رسالة امرأة	مؤسسة روز اليوسف ، الكتاب الذهبي ١٩٦٠ نفد

نثر غنائي

المساء الاخير	دار المعارف ، ١٩٦٣

دراسات

دراسات أدبية	النهضة المصرية ، ١٩٦٤
دراسات في الأدب العربي المعاصر	المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ (الدار القومية حاليا)
دراسات في الحب	دار الهلال ، كتاب الهلال ، ١٩٦٦ .
دراسات في الرواية والقصة القصيرة	الانجلو ، ١٩٦٧

روايات وقصص

من منشورات دار الآداب

		ق. ل.
اولاد حارتنا	نجيب محفوظ	٧٥٠
الحي" اللاتيني	الدكتور سهيل ادريس	٤٠٠
الخندق الغميق	» » »	٢٥٠
اصابعنا التي تحترق	» » »	٤٠٠
الناس والحب	محمد ابو المعاطي ابو النجا	٢٥٠
ليل الغرباء	غادة السمان	٣٠٠
ثم تعود الموجة	ديزي الأمير	٢٥٠
خمسة أصوات	غائب طعمة فرمان	٥٠٠
عن الرجال والبنادق	غسان كنفاني	٢٠٠
الذين لا يبكون	عايدة مطرجي ادريس	٢٠٠
حتى يبقى العشب أخضر	اديب نحوي	٢٠٠
حكايا للحزن	» »	٢٥٠
جومبي	» »	١٢٥
المهزومون	هاني الراهب	٣٠٠

٢٥٠ ق.ل - ٣٢٥ ق. س - ٤٠٠ مليم

